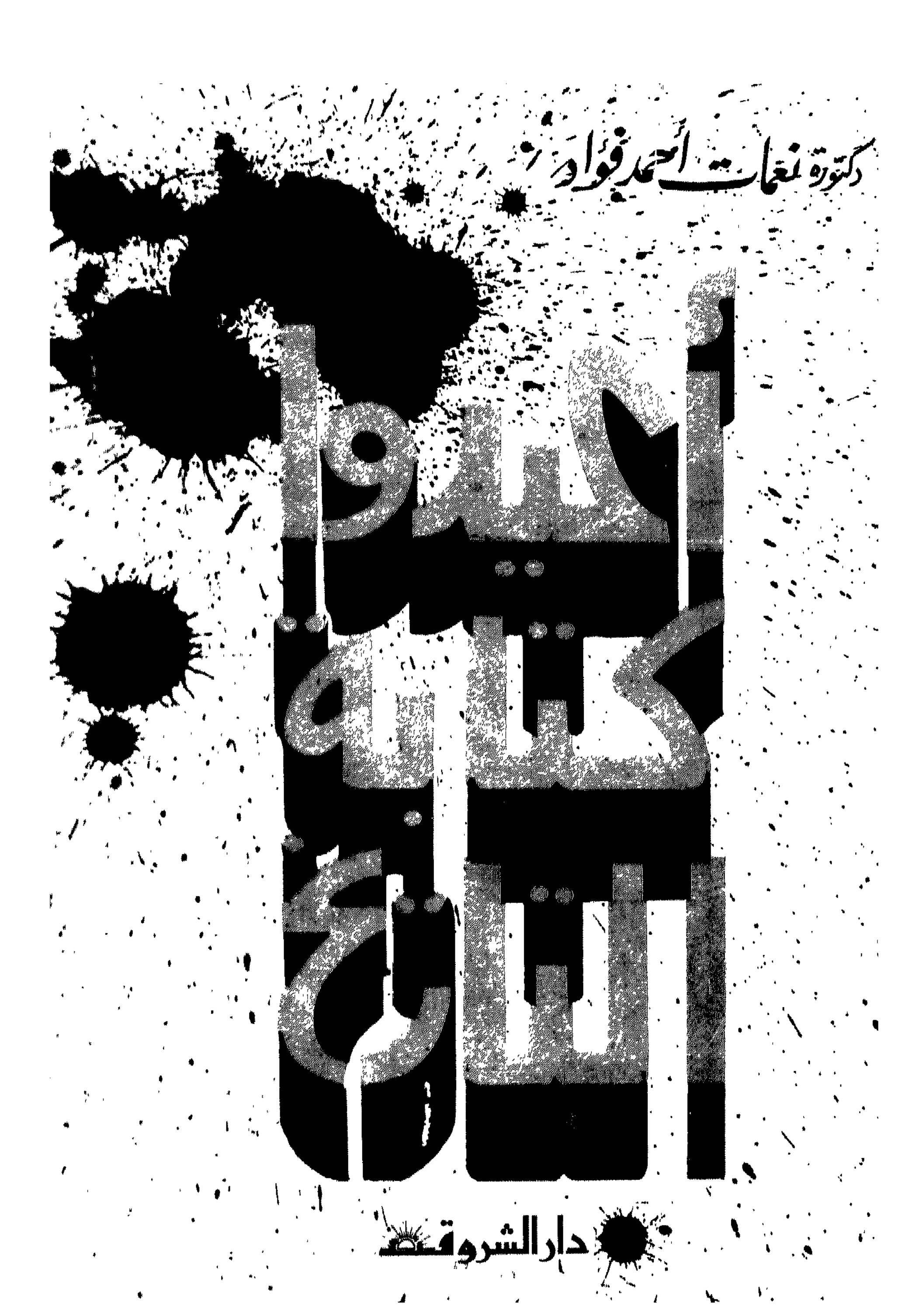

دكتورة نعمات أحمد فؤاد
أعيدوا كتابة التاريخ
دار الشروق

أعيدوا كتابة التاريخ

الطبعة الاولى

يونيو ١٩٧٤

القاهرة : ١٦ جواد حسنى ت ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة
بيروت : ص. ب ٨٠٦٤ ت ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق بيروت
جـــدة : ص. ب ٤١٤٦ ت ٢٦٦١٠ برقيا : شوركورب جدة

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

أعيدوا كتابة التاريخ

دار الشروق

من مؤلفـــات الـكاتبة

* شخصية مصر
* النيل فى الأدب المصرى
* قمم أدبية
* أدب المـــازنى
* فى بلادى الجميلة
* خصائص الشعر الحديث

الغلاف للفنان مصطفى حسين

مقدمة

فى هذا الكتاب مواجهة فاحصة للمفاهيم الخاطئة فى تفكيرنا ، للأوضاع الدامية فى حياتنا بالتحليل والاستقصاء والغوص عن الاسباب الجذرية ... فطالما كتبت عن شخصية مصر وكنت فى انسحاق الهزيمة ، أتعمد أن أجلو ايجابيات هذه الشخصية وعطائها فى ماضيها الطويل لاعطى الامل للنفس المصرية ، وأنفض بعضا من أحمال وأوحال اليأس التى رزحت تحتها حتى كادت تختنق كمدا وهوانا ....

أما وقد انجابت الظلمات وتنفس الصبح فلا ضير بل **لابد** من كشف السلبيات لا شهوة فى النقد أو السادية أو تحطيم أشخاص فان هدف المصرى العابد أكبر من هذا وأكرم وأرفع ... فملاك الأمر عندى **ألا تتكرر المأساة** اذا لم نستفد من الاخطاء ، ونتب عن الخطايا ... وهنا تكون المواجهة ضرورة وفرضا ...

ان أى حاكم لا يقع الجرم عليه وحده ، ولا بالقدر الاكبر لانه لولا من يقبل الجور ما كان من يجور . ولهذا ينصرف اغلب ما فى هذا الكتاب من النقد ، الى الشعب لان الحاكم عادة فى البداية يكون متهيبا يتلمس مواطن رضاه فلما وجده يتهافت عليه ويغرق فى مدحه ثم تأليهه ، استخف به ...

ان هذا الكتاب صيحة فى وجه هواة الملق ودق الطبول ، الذى بدأ بالفعل نفاقهم الرخيص لا فى الظهور بل فى النمو والاستفحال ... الكتاب صيحة فى وجه من نظموا الكواكب عقود مدح بالامس ، ويعاودون الكرة اليوم بلا خجل ... حتى لا يؤذوا حاكما لديه الاستعداد للاصلاح والصلاح .

هذا الكتاب يتغيا مصر وحدها ... مصر البسيطة السمحة المؤمنة المعطاء دون نظر الى الألوان والمذاهب والايدولوجيات المختلفة فما احبت مصر يوما التمذهب أو التطرف الى اليسار أو اليمين وكل من حاول صبغها بلون صارخ أو صاخب نفرت واستعصت عليه .. وسخرت منه فى النهاية حين يجد نفسه بعد الجهد والعناء يقف وحده وهى فى مكانها لا تريم .

لقد حاولت الدولة الفاطمية أن تمكن لنفسها فيها مائتى سنة ثم دالت الدولة الفاطمية فقلبت مصر الصفحة وكأن لم يك بها شىء اسمه الشيعة والشيعيون ...

وجاء دور الدولة الايوبية لتحاول فلم يكن نصيبها من تتبيع مصر أوفى حظا من غريمتها ...

لقد آمنت مصر بالاسلام فى صورته الاولى المصفاة التى توافق طبيعتها هى .

وآمنت بالمسيحية ، قبله ، بطريقتها هى فصارت المسيحية فيها دون غيرها من البلاد ، قبطية .

هذا هو موقف مصر من الاديان فكيف الحال مع من لا يرقى الى هذا الافق الاعلى ؟ مهما اختلفت أسماء .

مصر هى مصر وكفى .

وانا فى هذا الكتاب فى كل كلمة .. فى كل نبضة مصرية وكفى .. لها .. وعنها .. ومنها ينبع رأيى وسخطى ورضاى ... فــلا أعرف غيرها ولا أدين بعد الله وكتبه ورسله الا بها ... أرى الأشياء والانفعال والمعانى من خلال رؤيتها هى على مسار تاريخها الذى درسته ، ودينها الذى اعتنقته ، وأدبها الذى عشته وفكرها الذى سافرت فيه بالعقل والروح .

من هنا كتبت فصلا ضافيا عن الدين .

ومن هنا كتبت فصلا عن الفن .

لان مصر لها فى الدين والفن مفهوم خاص وافق ارحب ..

ومن هنا ناقشت الأفكار الثابتة أو المفاهيم الثابتة التى نتوارثها بدون نقاش او اقناع أو اقتناع . وغير هذا اسلوب مصر فى الأخذ والعطاء ...

ومن هنا وقفت عند الدعوة الى الدولة العصرية لأرش الضوء على خطاها فى الطريق الذى تختار بعد روية وتفكير .

فالكتاب فى فصوله كلها يدور ، شمعة ، حولها .. يستوحيها الفكرة ، ويستهديها المعنى ، ويفسح لها الطريق لتسير .

بنور من الله

وذخر من العلم

وهدى من الدين

فما رشدت مسيرتها يوما الا بكشف من هؤلاء .. وعطاء .

ومن هنا نريد :

الدين لله

والوطن للجميع

والعمل لذى الخبرة فيه

والأمر بيننا شورى

ليصلح آخرنا بما صلح به أولنا .. وهيهات أن يصلح الله ما بنا حتى نصلح ما بأنفسنا .. وكيفما نكن يول علينا ..

هذا الكتاب مرحلة أخرى من الرؤية لشخصية مصر .. فى محاولة موصولة للوفاء

بها

ولها

فاللهم اشهد ... ؟

دكتورة نعمات احمد فؤاد

أعيدوا كتابة التاريخ

مهما كتب الكاتبون أو تحدث المتكلمون عن (العبور) فان الأذن تسمع وتقدر وتعى لان العمل صنيع شعب ومولد أمة من جديد...ورد اعتبار لا عن هزيمة عسكرية فحسب ولكن عن جيل كامل كان يعيش ولا يحيا .

(العبور) بارادته ، وادارته ، واعجازه كان رد اعتبار عن حقبه من الفسولة والقماءة والعجز الاضطرارى فلم تمارس ملكات الشعب المصرى وطاقاته قدراتها الحقيقية حين اسقط من الحساب وعجز عن الحساب فلم يكن له رأى ولم تتح له فرصة وان كان فى أول الأمر أحس بغير قليل من الزهو القومى حين توهم بعد سقوط الملكية ومصاولة الاستعمار، انه صاحب الامر من خلال مصرية الحاكم القحة، فاذا به توسم الخير ، من طيبة قلبه

فلما وقعت الواقعة ، أعطى الوعى للرجال حق التخطيط بما علموا ، فأعطى بدورة كل قادر وعالم عطاءه كاملا .

وهنا وجد الشعب نفسه ، ووجدته الدنيا حوله ، على حقيقته عندما أتيحت له الفرصة ، واشترك فى الراى واضطلع بالعمل...

وهو درس من دروس (العبور) يجب أن نعيه ونتخذه منطلقا لالوان أخرى من العبور فى نواحى حياتنا كلها .

وهنا نقول : أعيدوا كتابة التاريخ .

توقفوا عند انجازات الطوب والاحجار واسألوا أنفسكم عما وراءها ان كان وراءها شيء له قيمة باقية ... فليس الحاكم مقاولا لنقيسه بما تم على يديه من مبان وصروح مما قام فى الحقيقة على اكتاف « الانفار » و « الفعلة » الذين رماهم بؤسهم أو خوفهم ففرضت عليهم لقمة العيش المرير أن يأتمروا بأمره ليسبح فى عرقهم ولو غرقوا صرعى .

ان العصر التاريخى أو عصر الحاكم يجب أن يقاس **بقيمة الانسان فيه** ... هل قال الفرد كلمته أو عبر عن رأيه ؟ هل فيه حرية وأحرار ومفكرون ؟

ولناخذ تجربة قريبة من تاريخنا الحديث ... فى العشرين الاخيرة من القرن التاسع عشر وفى الخمسين الاولى من القرن العشرين كانت مصر ترزح تحت الاحتلال البريطانى الذى قلنا فيه الكفاية من أوصاف السوء ، وبحق . فلندع التشنجات اللفظية ونمض فى تحليل الظاهرة ...

فقدت مصر حريتها السياسية وهى ليست بالقليلة أو الهينة . ولكنها أيضا ليست أنكى أنواع الفقد اذا أخذنا فى الاعتبار أن الفقد هنا عارض محكوم عليه بالزوال وقد حدث بالفعل بل لعل الفقد هنا لو جاز أن له وجها آخر ، يوقظ جوهر الشعب ويحفز عزائمه الى التفاعل والعمل فى محاولة الخلاص منه ...

فى عهد الاحتلال البريطانى وفى أوجه أى فى أعقاب فرض الحماية على مصر أراد الجنرال مكسويل بصفته حاكما عسكريا عاما ، أن يفرض الحراسة على أموال المصريين الموالين للخديوى عباس ممن نفوا خارج البلاد فاعترض عليه رئيس الوزراء المصرى وقتئذ حسين رشدى باشا مستندا الى القانون العام الذى ينص على أن الحراسة لا تفرض الا على **الاعداء** وفى زمن **الحرب** .

وحين عاود الجنرال اللنبى المحاولة عام ١٩٢٢ بالنسبة لسعد زغلول وصحبه اعترض عليه هذه المرة رئيس الوزراء الانجليزى نفسه لويد جورج !!

ولكننا عام ١٩٦١ بعد نصف قرن تقدمت فيه الدنيا ، فرضت مراكز القوى على مصريين الحراسة بشكل همجى للارهاب المادى والمعنوى . وجرى من المآسى والمخازى ما سجلته (لجنة الاقتراحات البرلمانية) التى تشكلت عام ١٩٧٢ .

هذا عن حرية العيش. أما حرية الراى ففى عهد الاحتلال البريطانى نادى لطفى السيد **بالمصرية** ، ونادى طه حسين بحرية الفكر والتحلل من الغيبيات والهالات الصناعية نحيطها بها كل قديم لمجرد القدم حتى ولو كان صادرا عن غير أصحابه الظاهرين ... ناقش طه حسين الشعر الجاهلى فى عقلانية وانفتاح كما ناقش مستقبل الثقافة فى مصر ... ولا اريد أن اقول ان كل كلمة قالها صواب محض فليس هذا هو المهم ولكن **الهام والأهم هو مبدأ حرية الرأى والتفكير والقول والكتابة والنشر ...**

عبد العزيز فهمى وجد من نفسه وعصره ، **الشجاعة** ، على الجهر باسبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ... ومرة اخرى اقول انى لا ارى التصويب أو التهجين فى هذا الرأى ولكنى ارى أولا حرية صاحبه فى اعتناقه والدعوة اليه .

على عبد الرازق تكلم وألف عن أصول الحكم .

أمين الخولى تكلم عن مصرية الادب والتفسير النفسى للقرآن والبلاغة الحقيقية .

العقاد والمـازنى انهالا على أدب التشريفات والمدائح التسولية وامتهان كرامة الانسان والفنان بالتبعية والتقامؤ والنفاق .

انهالا على النظرية العتيقة المقدسة « بيت القصيد » .

الدكتور منصور فهمى ، مصيبا أو مجانبا للصـواب تكلم عن حرية المراة فى الاسلام .

الدكتـور أحمـد أمين تكلم عن أدب المعـدة وادب الرأس والعقل ... وتكلم عن العامية وأمثالهـا ومضامينها وجـذورها ودلالاتها .

تكلم عن الحياة العقلية للعرب فى فجر الاسلام وضحى الاسلام وظهر الاسلام بما يشكل موسوعة جامعة .

محمود عزمى والتابعى استنا السهولة والخفـة والسرعة فى الكتابة ، والزيات دافع عن البلاغة ..

ارتاد الحكيم والمـازنى وهيكل واضرابهـم طـريق القصـة والرواية والمسرحية .

ترجم محمد بدران وزكى نجيب محمود قصة الحضارة .

نزل أحمد فؤاد « صاعقة » على الوان الفساد الموجـودة فى أيامه وكانها مسامير النديم ...

الف ابراهيم عبده (الطور فى متحف الخزف) .

صدرت فى حقل الثقافة ، مجلات البيان والرسالة والثقافـة والهلال والمقتطف ولواء الاسلام .

لم تترك الرسالة بلدا عربيا الا دخلته بل لقد كانت المجـلة الوحيدة التي يقرءونها ويكتبون فيهـا حتى لقـد كان السوريون

يسمون يوم الثلاثاء الذى كانت الرسالة تصل اليهم فيه ، **يوم الرسالة** ، ولا يقول قائلهم يوم الثلاثاء ....

كما كان الاديب من كتاب الرسالة عندما يزور بلدا عربيا ، لا يميزونه باسمه بل بهذه الصفة فكان كتاب الرسالة فى هذه الظاهرة **كامل بدر** .

كانت الكتابة فى الرسالة شهادة للكاتب ترفع من اسمه وتعلى بين الكتاب مكانه .

كانت الرسالة **مدرسة** ربت جيلا وربطت شعوبا ووصلت بلادا ووثقت علائق ونهجت سبلا . كانت ريادة ومشعلا وسفارة لمصر لم تعمل عملها السفارات .

ومن الغريب أو العجيب أن الرسالة والثقافة اللتين ولدتا وعملتا بانفتاح ومقدرة فى ظروف عاصفة جثم فيها الاستعمار على حياتنا ، احتجبتا فى عهد الاستقلال ! : الرسالة فى فبراير عام ١٩٥٣ ، وقبلها « الثقافة » فى يناير عام ١٩٥٣ !!

وقامت بعدهما مجلات عدة تتعلق باسمهما تشبها ، أو لعله تبركا ولكن واحدة لم تغن غناءهما أو تعمل عملهما أو تقف وقفتهما .

لقد كانت الرسالة تخوض المعارك **معارك الرأى والوطنية** . وبعض هذا مقال الزيات المدوى **(فلاحون وأمراء)** على أثر اهانة الأمير عمرو ابراهيم لأحد الاعضاء المصريين بنادى محمد على ومقاله **(الامتيازات والدين)** ...

وحين فزع السادة أمراء ذلك العصر ذهب جمعهم الى محمد محمود باشا رئيس الحكومة وقتئذ فنظر اليهم فى شموخه المعروف وقال لهم : أنا معه بل ذهب الى القصر مهتاجا ..

وارتطم صاحب الرسالة بالقصر بعد هذا فى مقاله **(ليس بعد الدين وازع)** على أثر زواج نتحية من رياض غالى ... وفزع القصر لولا ان توسط فى الأمر محمد حسن يوسف وكيل الديوان وقتئذ ..

وهكذا كانت الرسالة مجلة **أدب وثقافة ومبدأ وهدف وأسلوب وغاية ...**

والى جانب الرسالة والثقافة كان مجلة **(الهلال)** تعنى بالتاريخ ، و **(المقتطف)** يحتفل بالعلم و **((الكتاب))** يحتفى بالأدب ، و **((الكاتب المصرى))** تعنى بالترجمة ، كانت هذه المجلات تهتم بالفكر وكأنها الصورة الجديدة لمجلة **((البيان))** التى صدرت سنة ١٩١١ .

ماذا بقى لنا ؟

أو ماذا عندنا ؟

عدمت الريادة يوم عدمت الحرية الداخلية وكانت موجودة بل سباقة محققة والحرية الخارجية مكبلة ترهقها انجلترا ، وتجرحها الامتيازات الأجنبية . اليس هذا عجيبا ومذهلا ؟

ومن الغريب اننا حين أطلقت الحريات **لم يوجد الكتاب الاحرار** لان الكتاب لم يتمرسوا فى شبابهم بالحرية **فلما** نتح بابها عليهم لم يفتح عليهم القلم بشىء !!

ماذا حدث ؟

تشرك كل شىء فى مصر أى صار اشتراكيا !! لا عن عقيدة اذن لساغ الأمر ولكن عن مداهنة .فأستاذ الاقتصاد كتب عن الاشتراكية.

وأستاذ التاريخ السياسى كتب عن الاشتراكية .

وأستاذ التاريخ الطبيعى **أيضا** كتب عن الاشتراكية .

والأدب كتب عن الاشتراكية .

حتى علماء الدين كتبوا عن الاشتراكية !

الكل التقط مانشيتات الصحف وراح يرددها فى ببغاوية مضحكة الضحك الذى يوصف بأنه كالبكاء .

تعادى السلطة أمريكا فتنسحب العداوة فى درجات السلم الهرمى على كل ما هو أمريكى حتى الفكر والثقافة مع أن الدين يقول بأخذ الحكمة ولو من أهل النفاق، وبطلب العلم ولوفى الصين .

وقبل هذا عادت الملكية ، الشيوعية ، فاذا بكل ما هو روسى ، منفر يثير الذعر حتى القصص على عالميته ...

رسمت **قومية عربية** ، فسار الكل وراءها يرددون كأنها حلقة ذكر غير انها لم يذكر فيها اسم الله أو اسم الوطن ...

مسخت حياتنا مسخا مشوها فلا هى الى الشرق ولا هى الى الغرب .. فصمت من الماضى وعزلت عن الحاضر .

غامت الرؤيا وانبهم الهدف

ان رواد الخمسين الاولى وأعلامها ، لو تأملنا مسيرتهم ، نجد أن فترة الخصب العقلى والابتكار عندهم فى أعمالهم ، كانت العشرين أو الثلاثين سنة التالية لفترة التحصيل أى التى تقع بين الثلاثين والستين .

فماذا صنع شباب الخمسينات من هذا القرن ؟ داروا فى الساقية أو انخرطوا فى الطاحون .

ضاع البريق .

لا رأى يهز ، ولا فكر يجدد ، ولا ابتكار يرتاد ، ولا جدية تنال ، ولا اسم يتألق .

سادت **الوصولية والانتهازية والببغاوية والحرباوية** ... وبالطبع **الأمية** .

وكانت النتيجة أن ضاق كل شيء بكل شيء كما يقول نجيب محفوظ حتى الضيق ضاق بالضيق ...

وهنا لم يملك الأدب الا الرمز ليعبر عن تمرده أو يبرىء ذمته ولو بأضعف الايمان .

فماذا وراء الرموز ؟

فتح الأدب بنكا للقلق ... يقول توفيق الحكيم ((**فى وعى**)) ما من أحد الآن فى حالة طبيعية لأن القلق منتشر بل سائد بشكل وبائى عند كل الناس حتى الذى يملك مائة فدان يعيش فى حالة قلق !

لماذا ؟

فى بنك القلق أكثر من جواب :

« ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .

« كل انسان فى حاجة الى أن يتكلم وأن يصيح وأن يوافق وأن يعارض » .

« كل ما يخشاه — الانسان — هو أن يرغم على قبول شكل فى الحياة يسجنه » .

« أصبح الواحد منا يتخبط اليوم فى بحر واحد من قلق شامل لا يطاق » .

« — الانسان المصرى المعاصر — يعيش فى مجتمع هش ليس داخله ايمان حقيقى بشىء أكثر من اقتناص المغانم ! » .

مجتمع برجوازى داخل قماط اشتراكى .

والشباب ... « الشباب اغرقوا أنفسهم فى كل بلاد العالم فى خبط الجاز والروك أندرول والخنافس وما شابه ذلك من الوان الضجيج والحركة العنيفة والأصوات المزعجة ! .. ليواجهوا خبط الكبار فى ضجيج الحرب والقمع والمؤامرات والمخابرات ! صخب عام فى حانة كبرى ، ضمت الكبار والصغار ... وان اختلفت ادوات الزياط والوان الخمر ! »

بنك القلق اذن « مكان للتنفيس ... رئة يخرج منها الزفير الفاسد ! خير من أن يكتم .... هذه هى جوهر فكرة هذا البنك » .

وهدف بنك القلق (ترك الناس تتكلم ... أقصد اتاحة الفرصة للزبون يفضى بكل ما فى صدره .. يكشف عن بواطن نفسه .... عن أسباب قلقه ....) وقد تكلم توفيق الحكيم نفسه فى (شمس النهار) و (السلطان الحائر) ولو أن دور سلطان العلماء الشيخ عز الدين عبد السلام فى التاريخ اكبر وارسخ من دوره على المسرح .

والفنان وسط هذا الزحام (هو الوحيد فى القرية الذى أدار ظهره لحركتها الدائبة ، وانفلت من المحاريث السائرة والنوارج الدائرة والسواقى **الناعرة** وذهب الى شط الترعة يقطع سيقان البوص ويصنع منها مزامير ...)

ولكن المزامير وحدها لا تكفى ... وقد أحس الفنان نفسه بهذا لأن الامة المطحونة لا يطب لها الغناء وحده ... بل انها

فى حاجة الى من يعيش مشاكلها وينفض همومهـا بالتعبير عنهـا وطرح علاج لها وتنفيذه ... ولهذا دخل الأدب فى مرحلة جديدة لم تخطئها **حتى عين العدو** فيما يقوم به من دراسـات على الأدب العربى بعد عام ١٩٦٧ مما فصله كتاب الهلال « الأدب الصهيونى المعاصر » .

فى الستينات بدأت **القصة المصرية تتحول عن الواقعية الى الرمزية** وسـفرت هـذه الظاهرة بشـكل خاص عنـد الروائى الأديب نجيب محفوظ الذى يمر الآن بمرحلة جديدة من مراحله الفنية .

نجيب الآن **مباشر** يركز على الحوار **المشبع** بالأفكار الفسفورية التى تتواكب فى توال كطرقات المطرقة النشيطة فى أسلوب مدبب الفاظه شوكية فى قصته (ثرثرة فوق النيل) .

هـل بعـد الضياع عذاب ؟ (فيا أى شىء افعل شيئا فقـد طحننا اللاشىء) .

فى قصة نجيب محفـوظ ظاهرة **هروب المثقفـين** الذين يعون حركات التاريخ لا الى العوامة وحدها ولكن الى شريط التـاريخ القابع فى رؤسهم . وهى ظاهرة ملموسة اليوم فى ادبنـا القصصى والمسرحى — فيفرون محفوظهـم أو يستعرضون الشريط كلمـا تشابهت المواقف أو الظلمات وكأن الأمر (توارد خواطر) .

فجمود الروتين وبلادته وتحجره فى غباء ، وعبثـه فى لا مبالاة ، يورث الدوار . وفى (غيبوبة الدوار تختفى جميع الأشياء الثمينة ... من بين هذه الأشياء الطب والعلم والقانون والكلمـات المشتعلة بالحماس) وفجأة يتـذكر الانسـان جرائم الممـاليك الذين كانوا (يطلقون اللحى ويثيرون الغبار ويفرحون بالأبهة والتعـذيب) .

ولكن البغاة راحوا ... انداحوا ... وبقيت مصر .. مصر البسطاء الذين يقومون بالأعمال التى تبدو بسيطة وهى فى الواقع

ملاك الأمر وسره . فهى كالعوامة والرجل البسيط كعم عبده **هو كل شىء ..** انه العوامة ، لأنه الحبال والفناطيس واذا سـهـا عما يجب ، **لحظة** ، غرقت وجرفها التيار .

ما هى الأسباب التى حولت طائفة من المصريين الى رهبان ؟ والسـؤال هنـا اسـتقطب الزمن ليصـل الى مصر المسيحية حين اليأس من عدالة الارض واللياذ بكنف السماء ثم الصحراء

فى القصة عملية تشريح **للأخلاق والسمات والأقنعة الخارجيـة** التى سقطت الواحد تلو الآخر فى قاع النيل .

ففى القصة **سـخرية من المظـاهر** والاطارات والشـعارات والتقاليد .

سخرية من سقوط الفلسفة .

سخرية من التمثيليات الهادفة .

سخرية من موقفنا من الأحداث وكأننا (أحمد نصر) أو عـم عبده الذى يطـل على المعمـة من أعلى البرافان على سـبيل الفرجة أو التسلية .

سخرية من **النفاق** .

سخرية من لويس السادس عشر الذى لا يدرى شيئا عما يدور فى الخـارج .

سخرية من الغزاة الذين **يتحلون** بقسوة حادة كالدرع .

سخرية من الهاربين من لاشىء الى لا شىء والمقتولين بالسـم البطىء والقاتلين على السواء .

سخرية من **المخبرين** الذين يراقبون **المفيقين** لا المساطيل .

سخرية من **المتعالمين** (ذرية علماء النحو) .

سخرية من (أخذ الأصوات فى ديمقراطية دامية)

سخرية من الخوف من كل شىء حتى يغدو صاحبه لايخافشيئا .

، سخرية من **العوامة** التى تشيع فيها النكتة كحركة تغطية نفسية ثم تنعدم حين تصبح الحياة فيها نكتة سمجة ، أشنع تهمة فيهـا **هى الرجعية** . فـكل قلم يكتب عن الاشـتراكية (على حسـين تحلم أكثرية الكاتبين بالاقتناء والاثراء وليالى الأنس فى المعمورة) .

ضاق كل شىء بكل شى حتى الضيق ضاق هو الآخربالضيق .

وفى زحام (الثرثرة) **تبرق** هذه العبارات :

(ان السفينة تسير دون حاجة الى رأينا أو معاونتنا وان التفكير بعد ذلك لن يجدى شيئا ، وربما جر وراءه النكد وضغط الدم)

ــ (نحن نعيش فوق المـاء فنهتز لوقع أى قدم) .

ــ (ليس الانجليز وحدهم الذين يقتلون بالسم البطىء) .

ــ (راحوا يتساءلون عن كيف يبدأون ، وكيف ينظمون أنفسهم ، وكيف يحققون الاشتراكية على أسس شـعبية ديمقراطيـه لا زيف فيها ولا قهر)

ــ (تدارسوا) العراقيل المتحدية ، والأخطار التى قد تحيق بهـم كمصادرة الأرزاق والاعتقال والقتل) .

ــ (الخيام الذى كان مدرسة أمسى فندقا للملذات) .

ــ (أيها الحكيم القديم « ايبو ــ ور » أقدم بعصرك الذى اضمحل فيه كل شىء الا الشعر وأسمعنا الغنـاء . حدثنى ماذا قلت لفرعون . أقبل الحكيم « ايبو ــ ور » وهو ينشد) :

ان ندماءك قد كذبوا عليك

هذه سنوات حرب وبلاء

قلت اسمعنى مزيدا أيها الحكيم ! فأنشد :

ما هذا الذى حدث فى مصر
ان النيل لا يزال يأتى بفيضانه
ان من كان لا يمتلك أضحى الآن من الأثرياء
يا ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت

قلت ما ذا قلت أيضا أيها الحكيم (ايبو ـــ ور) فقال :

لديك الحكمة والبصيرة والعدالة
ولكنك تترك الفساد ينهش البلاد
انظر كيف تمتهن أوامرك
وهل لك أن تأمر حتى يأتيك من يحدثك بالحقيقة .

نجيب محفوظ الآن يلتزم قضية شعبه يحس بضغط همومه ويعبر عنه ففى قصة « ميرامار » عالج انتفاض البسطاء المطحونين ـــ من خلال زهرة ـــ الذين يعيشون مع الغالبية فى أيام (منحوتة من العسر والصخر) . «الأيام التى تسبق مباشرة يوم القيامة » . . .

كشف الادعياء فان كثيرين من محترفى السياسة والاهمية والمشغولية كسرحان البحيرى (لا يعرف الفارق بين الوفد والنادى الأهلى) . . . كسرحان لا يهتم فى فى أعماقه بالسياسة رغم نشاطه الموفور فيها أو كشعبان بنك القلق (اشتراكى ماية فى الماية ! وان كان بينى وبينك لا يعرف ما هى الاشتراكية) .

نفاق ممتع كما يقول نجيب محفوظ أو (اشترأسمالى) كما يقول الحكيم فى « بنك القلق » . . .

والأجيال عند نجيب محفوظ فى « ميرامار » متواكبة فهى يكمل بعضها بعضا ولولا الجيل السابق لما تحقق للجيل اللاحق وجود ...

وهو مذعور من فكرة مصادرة الثروات لأنه يؤمن بأن من يقتل مرة قد يعتاد القتل ...

ان الجنة عنده (هى المكان الذى يتمتع فيه الانسان **بالأمن والكرامة** أما النار فهى ما ليس كذلك) .

وحين تغيم فى عينه الأشياء يتساءل :

« البحر يترامى تحت سطح أملس باسم الزرقة فأين العاصفة الهوجاء ؟ والشمس تهوى الى المغيب مرسلة شعاعا ماسيا يلتحم بأهداب سحائب رقيقة فأين جبال الغيوم ؟ والهواء يلاعب سعف النخيل فى غابة السلسلة بمداعبات شفافة رقيقة فأين **الرياح الهوج المزلزلة ؟** » .

ان التوازن كما يقول (لا يرجع الى الأشياء الا بزلزال شامل)

(اننا نتدهور معا بأكثر مما تصورت لكننا سنخرج من التجربة كالمعدن النقى ....

واعطى نجيب محفوظ هذه الفترة (اللص والكلاب) ، (والسمان والخريف) ، (أولاد حارتنا) ، (تحت المظلة) وقصته القصيرة (الطبول) طبول الرحلة العقيمة والمستفيضة وأخيرا (الكرنك).

وفى السبعينات أخذ احسان عبد القدوس ينتمى الى مدرسة نجيب محفوظ الرمزية ... مدرسة ثرثرة على النيل ، و (ميرامار) و (روبابيكيا) ... بدأ يخدم الرمز شفافا وكثيفا فى قصة « رصاصة واحدة فى جيبى) ومسرحية (لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص) .

مصر عند نجيب محفوظ فى قصـة روبابيكيا مطمـح الجميـع ومطمع ولكنها فى النهاية تسحقهم وتحيلهم الى حطـام ملقى فى عربة روبابيكيا ، وتتخطر هى على النيل جميلة مشرقـة متألقـة شبابها أخضر دائما وعودها ريان .رأسها شامخ وجمالها فتان.. محاسنها تغرى وتسبى ولكن الويل لمن تحدثه نفســه بالاقتراب منهـا .

ومصر عند احسان (١٩٧٢) .هى فاطمة الطيبة الجميـلة فى الثوب الأخضر ... وميمى السمراء الحلوة (أجمل واحـدة فى الدنيا) التى لا يكفيها جمالها ولكنها تبحث عن جمال عقلها وجمال ارادتها ... انها تريد أن تتبدى كمـا خلقهـا الله بصباحتهـا كلها ... بحلاوتها كلها .... بنفاستها كلها .... تعطى الحياة ما تريد ... وتأخذ منها ما تختار لا يطرف عينها شىء ولا يعلو وجهها نقاب **أبيض أو أحمر ...**

تريد أن تسير فى طريقها **هى** التى تعرفها لا تلتفت الى يمين أو يسار **لأنها قبل** اليمين وقبل اليســار ، بألوف الســنين ، لهـا **مسار .. ولها أسلوب شخصية .**

وتستطيع أن تعرف فاطمة من **نوعية** حب المؤلف لها ..... انه ليس حبا خاصا يتعلق به وحده .. انه حبنـا جميعـا لأن فاطمة **هى مصر ...**

(فاطمة حبيبتى ... أنك لا تستطيع أن تتصور مـدى حبى لفاطمة ، ولا كيف أحببتها . انه حب تضعف أمامه الكلمات ... بل أن فاطمة وأنا لم نكن نتصور ان ما بيننا اسمه حب ... انه احساس ولدنا فيه ... انه الحياة نفسها ...) .

هل هذه فتاة محددة ومحدودة ؟ لا ... انها **حـلوة الأبد** فى قلب كل مصرى . انها جميع الفتيات وجميع الفتيـان .. جميع

الرجال .. جميع الاطفال ... انها الحياة نفسها .. انها مصر ...

أما الشعب المصرى فى القصة فهو (طالب الفلسـفة) الطيب الهادىء الذى يعشق السلام والاحلام والخيال . فهو يحلم دائما (بالمخلص) .ولهفته عليه تجعله يتعلق بكل بارقة أمل تلوح . فما يكاد يرى (عباس) شابا مثقفا هادئا مبتسماً دائماً حتى هلل له وكبر وتوسم فيه الخير كله ... وتسلل عباس شيئا فشيئا حتى أصبح المشرف الزراعى المسيطر على الجمعية التعاونيـة ... المفتش .... والجمعية التعاونية هى السـلف الزراعيـة وهى الكيماوى وهى المبيد وهى التراكتور أى أبواب الرزق جميعا ...

ومع هذا أحبته القرية ... وأحبته فاطمة (بأحلامها البريئـة وبالخرافات التي تملأ خيالها عن صور المستقبل السعيد) .

ولكن فاطمة بعد أن استولى عليها عباس غدت بلهاء ... فى عينيها مأساة. تقف كأنها على حافة بئر تكاد تقع فيها ... فاطمة الجميلة الحلوة الهادئة أصبحت فاطمة الحائرة وجههـا مـكدود وقلبها مهدود ، وكرامتها مثخنة بالجراح ...

ويتساءل صاحبها الحقيقى الذى يحبها اغلى الحب واصدقه :

(كيف أعيد اليها شبابها ، ولمعة عينيها . كيف أجعلها ترتدى الثوب الأخضر الجميل الذى أحببته عليها دائما .... كيف ؟).

ومصر فى مسرحية (لا أسـتطيع أن أفكـر وأنا ارقص) هى الراقصة ميمى .... انها كالطير يرقص مذبوحا من الألم .. وميمى مجروحة نصف مذبوحة طارت ذراعها ونزف دمها ويريدونها على أن ترقص ويتجاذبونها ناحية اليمين وناحية اليسار وبينهمـا من البعد والتناقض ما بين المشرق والمغرب ولكنهما **يتفقـان على امتصاصها**.وتشقى وتتمزق **وتقف لتسقط من الداء والأعياء والمرارة واحساس الضياع والقهر**. ولكنهم جميعا يرتدون من عذابها وعطائها

(**جاكتة مذهبة**) حتى « **مجاهد** » خرج من عندها يرتدى هـــذه الجاكت على البنطلون المهلهل الذى كان يرتديه . ويسير فى عظمة ونخامة كأنه أصبح رجلا مهما) .

انهم جميعا وعودهم لها هباء ، وقلوبهم خواء ، وعينهم مسعورة لا تمتلىء من جمالها وجسدها . وهى لا تطيقهم ما تكاد تقترب منهم حتى تحس لهم فحيحا تنفر منه السمراء الجميلة (**أجمل واحـــدة فى الدنيا**) التى تقطر عسلا وشهدا ... ولكنهـــا نعرف انهـــم يمصون عودها وتخشى أن تصير **(تفلا)** ... انهـــا لا تصدق دعواهم الكاذبة . انها لا تريد **ذهب** هؤلاء **ولا دفع هؤلاء** ولا حتى تتبلتهم الذرية ... هى تريد أن تحمى نفسهـــا بنفسهـــا وتعطى نفسها بنفسها .. (اللى أقوى منى ســـيدى ... نفسى اعيش من غير سيد) . وحين يوقن « مجاهد » من رفضها **أنفسى** له . يحاول أن يتفق مع فؤاد (المطبلاتى) الذى لا يصدقها النصـــيحة بل يريغ لها من النغمات ما ترقص عليه رقصة الذبيح . . . فؤاد الذى (ينقر على طبلته) أى (أيدلوجية) حتى ضيعت طبلته الجميـــلة السمراء ، التى قذفت بها على الارض وحطمتها ، لأنها غررت بها وخدعتها ، وشغلتها عن البناء ، الحقيقى ، حتى داهمتها الطائرات والدبابات ، وراحت فى الحرب ذراعهـــا ، وتغطى وجهها الأسمر بالدماء ...

ويتساءل المؤلف :

(يا ترى نبتدى نضرب اللى ضرب ميمى والا ناخد ميمى ونرجع الكباريه الأخضر ؟) .

وأقـــول :

ابدا لن ترجع الجميلة السمراء الى الكباريه ... ستعود الى الوادى الأخضر **تزرع وتبنى وتصنع وتمجـــد العلم وتبـــدع الفن**

وتشكل **الحجر وتطعم الخشب وتخوض المعركة أيضا** ... ستعود الى الوادى الأخضر ترفع للسلم صروحا ، وللبطولة رايات ...

وفى مجـال الرمزية كتب الدكتـور يوسـف ادريس قصصه : « حامل الكرسى » و « الرحلة » و « وسنوبزم » ...

وكما رمز نجيب محفوظ الى الشعب المصرى ببواب العوامـة الذى لا يعرف أحد بدايتـه أو نهايته ، والذى لا يحسب حسابه المتسلطون الناعمون فى العوامـة ، وفى قبضته حيـاتهم ... فى استطاعته أن يفك الحبل فيغرقهم .... ، رمز الدكتـور يوسف ادريس الى الشعب المصرى **بحامل الكرسى** الذى يتعجب النـاس من قوته وهو بادى الضعف ... ضعف الجسم .

وقصة الدكتور يوسف ادريس « الرحـلة » مملوءة بالرمـوز الشفافة حينا والكثيفة أحيانا أخرى ....

والدكتور يوسف ادريس فى قصته « سنوبزم » رمز الى مصر بالسيدة العفيفة التى تركب الأتوبيس بين أهلها وناسها فاذا بهـا يتحرش بها أثيم ويسىء اليها ، ويحاول أن ينال من وقارها ، بل يحاول أن ينال من عرضها ! والنـاس يرون ويتعامـون ، أو « يفوتون » أو يمالئون الظالم ! وعند هذا الحد انبرى أحد الركاب وهو **دكتور فى الفلسفة** (رمز المثقفين) وأخـذ يهـاجم هـذا الوضع الشائن فسلقوه بألسنة حداد ولكموه لكمة تورمت منهـا عينه **وقذفوه خارج الأتوبيس !!**

وما أكثر الذين قذفوا خارج (الأتوبيس) .

* * *

هذا فى الأدب أما الصحافة فقد غدت صحائفها كفصل (البلدا) كل ينقل من السبورة **(السوداء)** ما كتبـه (المعلم) بعـد أن كانت الصحف كساحة البرلمـان ميدانا للمناقشة والمعارضة .

تناولت الصحف يوما مرتب وزير العدل ويقرأ عبد العزيز فهمى عناوينها وهو فى طريقه الى الوزارة فيغير وجهته ويأمر سائقه ان يتجه الى قصر عابدين وهناك قدم استقالته الى الملك فؤاد قائلا :

ــ كرسى العدالة يهتز من تحتى .!

ولكن جميع الكراسى ظلت ثابتة لم يقلقها شىء حين عزلت مراكز القوى القضاة بالعشرات ودفعة واحدة لانهم طرحوا رأيا فى عريضة .

ماذا يجدى سد أسوان أمام **سد الخوف** ؟ ان الانسان المصرى لم يبدع حضارته فى أى عصر الا **حين تحرر من الخوف** ...

لقد قامت الدنيا فى مصر وقعدت يوم قدم رئيس ديوان المحاسبة محمود محمد محمود استقالته لأن حقه انتقص فى مراجعة ميزانية الدولة .. وقامت الدنيا وقعدت يوم اجرى الملك فاروق تصليحات فى اليخت فخر البحار ، وناقشته الصحافة والبرلمان علنا لأن تجديد اليخت سيتكلف آلاف الجنيهات فماذا فعلت الصحافة مع مراكز القوى يوم ضاعت آلاف الملايين ؟ أصابها الخرس بل ان بعضها وجد فى نفسه الجرأة ، ولا أدرى كيف ، فحاول التغطية أو التبرير بصورة فاضحة !

هوان وصغار .

لم تعد هناك صحافة سياسية

ولم تعد هناك صحافة اجتماعية .. وغدا الكتاب :

كاتب صومعة وهؤلاء قلة يحتاجون الى صبر الرسل ليطيقوا العزلة والتقشف والمجاهدة .

وكاتب حر يلوذ بالرمز .

وكاتب حرباوى ببغاوى وهؤلاء كثرة لأن مهمتهم سهلة وثمنهم رخيص .

كانت الصحافة ، صحافة أحزاب نعم .. ولكنها كانت صحافة رأى فى الوقت نفسه .. أما صحافة اليوم فهى صحافة مذاهب وموجات .. أو **كتابة على ظهور الاعلانات** .

بين يوم وليلة تصطبغ ادارات الصحف باللون الأحمر وتنغمس الأقلام والحروف فى هذا اللون ثم تنحسر هذه الموجة وتضيع فى غيابات اليم أو السجن ليأتى مد موجة أخرى بيضاء .. وتقترب مراكز القوى أثناء هذا من دولة ، وتناصب العداء دولة أخرى فتتعاقب تبعا لهذا ، الموجتان وكأنهما الليل والنهار ...

وتمذهب تبعا لهذا الفكر وعلاقات الناس ، بل بلغ الأمر ان الادب ائتم بالميثاق !! كأنه فرغ من قضاياه كلها ، وكأنه نال منه الجهد من كثرة الخلق والابتكار فتخفف من مهامه الكبيرة ليؤلف كاتب عن **مفتاح الميثاق !** .. وما دامت مكتبتنا المصرية العربية تعتز بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، فان كدابى الزفة ، امعانا فى التقديس الأبيسى ، وضعوا معجما لألفاظ الميثاق !! أو مفتاحا ... ولا احسب أن أحدا طلب منهم هذا .

وامتلأت الشوارع بلافتات القماش المكتوب عليها عبارات الميثاق لتأخذ على الناس طريقهم .. ولم يفكر أحد فى كتابة او تعليق آية واحدة من القرآن الكريم حقا .. كتاب الله .

تحتمس بلا امبراطورية واحمس بلا انتصارات .

والتصق بنا النفاق حتى سلمنا به . فنجيب محفوظ يقول على لسان أحد أشخاصه (يا أمة عريقة فى النفاق)

درس الميثاق فى جميع مراحل التعليم لا تستثنى من هذا الجامعة حتى كليات الطب والعلوم وكأننا نسهم به فى التكنولوجيا الحديثة بل درس الميثاق فى كلية أصول الدين !!

وحفظ أطفالنا فى المدارس :

أنا عربى أبى عربى ...... الخ .

فنفر المصريون الصادقون من **دعوى وادعاء** القومية العربيـــة **لا لعيب فيها أو بغض لها** ولكن **للأسلوب الذى يمس تاريخ البلد** وفى الوقت نفسه لم يصدقنا العرب بل رأى فيها البعض غرضـــا خبيئـــا ... لم يصـــدقنا العـــرب ولم يحترمونا — لأن الـــذى لم يحترم مصره أى شرفه وعنوانه مارق أو رخيص .. وكان العرب يحترموننا قبـــل هذا ويحبوننا لذاتنا وباعتبارنا مصريين .

قابلنا عربيا كبيرا على الباخرة اسبريا فقال فى معرض حديثه عما فقدناه من أرض فى البلاد العربية : (كان العربى منا يحـــلم بأن يكـــون له **مربط معزة** فى القـــاهرة .. وكانت الارض عنـــدنا تعـــرض بعشرة قـــروش للمتر فـــلا تجـــد مشـــتريا .. الآن لا يفكر أحدنا فى ادخال ماله القاهرة ... وقد ارتفعت الأرض عندنا فبلغ ثمنها مئات الأضعاف !) .

كم فقدنا ليثرى الآخرون ويعمروا ويركبوا ظهر الموجـــة التى عميت عن الأعماق الزاخرة من رعونتها .

كانت نســاء مصر كظبـــاء مكة صيدهن حرام . فماذا بآلاف من نساء مصر يدفعهن ذل الحاجة وقســـوة الحيـــاة فى وطنهن الى الخدمة أو الى مـــا هو شر من الخـــدمة ممـــا ترغمهن عليـــه ، وتمرغهن فيه ، ملاهى بيروت .

خطب ملك الحيثيين يوما الى فرعون مصر ، **أميرة** مصرية ، **تقربا اليه**،وكسبا لرضاه. فلم يكتف ملك مصر بالرفض ، بل ثار ثورة عارمة كيف يتجرأ غير مصرى على **التطلـــع** الى الزواج من مصرية !

من عزة القوة ، وعز الجاه ما فعل ...

أه لو كان يدرى بمن تزوجوا المصريات **رقيقاً**، بغير عقد مكتوب !

وفى غمـــرة هـــــذا ألفت الكتب عن عـــروبة مصر فكانت بمحاولتها اللاهثة اثبات دعواها ، **تنفيها لا تؤكدها** بما نكشـف من عملية الافتعال لأن البديهيات لا تحتاج الى اثبات . والشاعر العربى نفسه يقول :

وليس يصح فى الأذهان شىء اذا احتاج النهـار الى دليـل

وفى هذا الصخب **لم نقرأ بالطبع كتابا واحدا عن عروبة الحجاز** لأن النهار كما قلنا أو كما قال الشاعر ، لا يحتاج الى دليل .

وتجاوزت هذه الدعوى الاغراض السياسية الى الكتب المدرسية بدءا من المرحلة الأولى الابتدائية ليحفظ الطفـل المصرى مع (أنا عربى أبى عربى) ، خزعبلات أخرى عن أصل الشعب المصرى ! مع أن الكتب العربية تتحدث عن العرب العاربة والعرب المستعربة كما تتحدث عن (فتوح البلدان) .

مهما جهدت المواربة والمعانى المتداخلة ، فان الحقيقة التاريخية لا تتغير ولكن يمكن درسها وتقييمها تقييما صـحيحا ... **فتـح** العرب مصر ولكننا اذا تخطينا (حتة) الفتح بظروفه وملابساته ، وجدنا أن الفتح العربى بعد تاريخى أو سـياسى ولكن الحـرب الرابعة بيننا وبين العدو الحقيقى ، اسرائيل ، علمتنا أن المنطقة **لها بعد ميتافيزيقى** .

ان الأديان محلية .

والسياسات زمنية .

ولكن المنطقة لها منطق واحد وهو أكبر كثـيرا من سـائر

المحليات . لقد تكلم الهواة كثيرا عن القومية العربية ثم عن قومية المعركة ، والخلافات تنمو وتترعرع على رنين الخطب البلاغية أو العامية فلما جدت الحرب ، ولدت لساعتها القومية العربية وقومية المعركة **معا** فى ساحة النضال ، مما أذهل العالم بل ادهلنا نحن أسرة المولود . وتأكد صدق الطائى فى فتح عمورية وتبين حقا أن السيف أصدق أنباء من **الكتب والخطب .**

واتضح للغيورين ما وضح للمشايعين أن المنطقة **كل** واحد تختلف أجزاؤه اختلافا كبيرا أو صغيرا كما تختلف الاعضاء والوظائف فى الكائن والكيان . ولكن الروح واحدة لا حياة للجسم جملة وتفصيلا الا بها ...

يكفى آصرة الدين واللغة والالم والامل ، **بعد الجوار** لنلتقى جميعا على **المحبة والمصلحة** فى وقت واحد .

ان مصر تخسر الكثير بدون البلاد العربية

والبلاد العربية تكسب الكثير بوقفة مصر معها : **الكلمة ، والمكانة والوزن السياسى والحضارى وكفاءة العلم والفن وهى قيم** اكبر كثيرا من أموال الدنيا .

ان الذى يحب مصر **بوعى** ، يحب جيرانها ، لأن مصر ان لم يكن لذاتهم ... ولكن (ذاتهم) تستحق الحب والاحترام والشكر بما **أدوا وما بذلوا** فى نبل وذكاء معا وبلغوا الغاية فى الأداء والوفاء .

* * *

وفى **هذه الغمرة حاول المنافقون اسقاط الماضى ،** امعانا **منهم فى تعظيم الحاضر** ! . وفاتهم ان طبيعة الاشياء تنفى وجودها من العدم . وفاتهم أكثر أن انسانا بلا جذور ، **لقيط** معنويا وتاريخيا وحضاريا . ولكنهم أرادوا **أمة التاريخ بلا تاريخ** حتى يقترن ميلادها

بظهورهم على مسرح الأحداث وان كانت الرواية **ملهاة** هزلية يأباها الطموح ، أو مأساة دموية تقشعر منها الأبدان .

وفى مواكب الاردية الصفراء والحمراء،وخفافيش الظلام والمتاثين والمدلسين و(صراصير المستنقعات) و«أشباح النهار». فى هذا الموكب الغوغائى أحس كل **ذى قيمة بالاغتراب النفسى والزمانى** فهاجر الكثيرون الى الخارج **وكانت مصر وطن من لا وطن له** . ونشطت أمريكا فساعدت على الهجرة أو الاستنزاف العقلى والكيانى باغراء المال .. وكم من طاقات وقدرات ضاعت من أيدينا.

يقول الفنان حسين بيكار :

(قد انتقلت عدوى الهجرة من العلماء الى **الفنانين** وهذه ظاهرة قد تكون صحية لو كان لدينا فائض من الكفاءات نصدره للخارج. والطيور لا تهجر أوطانها الا عندما تهاجمها الثلوج فتضطر الى قطع آلاف الأميال بحثا عن الدفء لتبنى هناك أعشاشها) .

حتى المبعوثين رفضوا العودة ! .. حتى الجامعات التى نضبت ولم تشهد منصاتها خلفا للرعيل الأول ، رأت الهجرة هى الأخرى فهجرها المتميزون الى الشرق أو الغرب بل هجر استاذ جاد معطاء الجهد والعقل كالدكتور جمال حمدان ، الجامعة الى العزلة ايثارا للانتاج بلا تحطيم .

هرب الكتاب المصرى الى بيروت حيث تجارة النشر والتوزيع الحر .. وما بقى فى مصر **اغتصب اغتصابا وزور وحرف** اعتمادا على سلحفاة الروتين فى مصر التى يقف أمام سيادتها ، الناشر المصرى مع الطابور الطويل ...*والى أن يأتى عليه الدور فى طابور الورق ثم فى طابور التصدير ثم فى طابور النقد ، تكون بيروت أخذت حريتها وراحتها فى استغلال الكتاب المصرى ،

والربح ، والاثراء من ورائه ، وأصحابه فى مصر تكاد تذهب أنفسهم حسرات .

واذ هرب الكتاب المصرى الى بيروت ، **هرب الفكر المصرى الى الكويت** حيث يتحرر ويحرر مجلة (العربى) ومجلة (الفكر) ! وكانت مصر تربة الأحرار والافكار والحضارات . تهب حركات التحرير فتؤازرها مصر بالتأييد والتوجيه والاذكاء .ويمتحن الأحرار فيتطلعون الى اللياذ بمصر. وفيها تحلقت حول جمال الدين الافغانى القدوة . واليها قصد الكواكبى .. وبها اتصلت حياة الأحرار ، وأسباب أصحاب الدعوات .

ان مصر وهى محتلة فى أواخر القرن التاسع عشر لم تكتف بالدعوة الى الحرية السياسية فى الداخل بل امتدت بها فى المنطقة فالتف السوريون ١٨٨٥ حول الشيخ محمد عبده (يتلقون عنه دروس العلم والحكمة والخير) ، كما يقول الدكتورأسعد أطلس.. وأحدث الشيخ محمد عبده فى بيروت (انقلابا عظيما) .

بل ان بعض الدعوات السياسية فى بعض بلاد الشرق يخطط لها فى مصر . اذ قبل أن تولد الباكستان كان رجالها يلمون بالقاهرة ليضعوا الخطط لتحرير بلادهم . وليس الى الشك من سبيل، أن جزءا كبيرا من تاريخ باكستان المعاصر قد كتب فى مصر .. وفى مصر كتبت فصول من قصة تحرير اندونيسيا ... وكذلك تونس والمغرب وليبيا والجزائر وكثير من بلاد افريقيا وآسيا .

كما قامت فى مصر **الدعوة الى الاصلاح الدينى** على يد محمد عبده والمراغى.ومن مصر نبعت الدعوة الى تحرير المرأة اضطلع بها قاسم أمين وتبعه الزهاوى فى العراق .

فاذا تجاوزنا العصر الحديث ، وأوغلنا فى القدم بضعة قرون ، نجد أن مصر بعد غارات المغول والتتار فى الشرق،وحركات الافرنج

فى الغرب (اسبانيا) ، كثرت الرحلة الى مصر **وتجمعت للحركة الفكرية فى القاهرة .**

وكما حفظت مصر من الضياع آداب اليونان وعلومهم والتى اعتمد عليها العرب فى تكوين شخصية حضارية لهم ، **حفظت مصر فى هذه الهزات تراث العرب الأدبى والفنى ..**

* * *

وكما يرقص الطير مذبوحا من الألم ، انطلقت الاغانى فى بلاهة، تأخذ دورا فى (الزفة الكدابة). ولا مانع عندها من التمسح بالفلاح والعامل . وما كسب الفلاح والعامل كسبا جذريا وخاصة الفلاح، فالاصلاح الذى لا ينبع من نفوس أصحابه وبيئتهم ... **من داخلهم** ، لا يؤمنون به ولا يتعمقونه لانه من خارجهم لم يغير نوعيتهم ... والدواء عادة ، حتى ولو حمل الشفاء كريه أو ثقيل على الاقل ... وقد فصل هذا طبيبنا أنور المفتى فى بحثه القيم فى مجلة (المجلة) التى اختفت فيما اختفى من قيم فى حياتنا ... ويزيد رجال الاقتصاد أن ما أخذه الفلاح باليمين من الاصلاح الزراعى بددته باليسار مجموعة التعاونيات الزراعية .

ولم تقصر السينما فى هذا المضمار فتخصص بعض مؤلفيها فى تسجيل الأمجاد فى أفلام يعاد عرضها مرارا كأنها مقررة على النظارة .

أما المسرح الذى نهض فى الثلاثينات والاربعينات نهضة كبيرة ونشط أيضا فى الخمسينات فانه بعد نكبة الأمة العربية سنة١٩٦٧ أخذ طابعا سياسيا حتى أنه أشرك الجماهير فى العرض باعتبارها متضامنة فى المسئولية عما يحدث . أو تأكيدا لمسئوليتها خارج المسرح بعد أن ينتهى العرض .

وانيثق عن نكبة عام ١٩٦٧ ، المسرح الغاضب أو مسرح الغضب الذى دعت اليه مسرحية الكاتب السورى سـعد الله ونوس : (حفلة سمر من أجل حزيران) .

***

منذ اعتنقت مصر الاسلام وهى حصنه الحصين ولكن الاسلام فى مصر فى هـذه الحقبـة اسـتحدثت باسـمه هيئـات كمـا كان المماليك يكثرون من بناء المساجد تكفـيرا عن خطاياهم أو تغطية لها وما كان المسـجد مبنى ولكنه معنى ونقـاء ينهى عن الفحشاء والمنكر .

وصدرت عدة كتب دينية كتبها أسـاتذة مختصون فى الدين . ولكن التخصص المدرسى غير التحليق الثقافى فالعقاد حين كتب عن الاسلام كانت كتبه (التفكير فريضة اسلامية) (حجج الاسـلام وأباطيل خصومه) ، (ما يقال عن الاسلام) ، العبقريات خاصة (عبقـرية محمـد) و (عبقـرية عمـر) . نـاقش العقـاد الغـرب ومستشرقيـه ونـاقش القضـايا التى يظن بهـا الضـعف ، فى مواجهـة يحجم عنهـا الكاتبـون ، فكان التصدى طريق الاقناع .. وهو طراز لم تستشرف اليه أو لم تقو عليه الكتب الحكومية الاسلامية فلم تعمل عملهـا فى أندونيسيا التى استشرى فيها التبشير وهى منطقة من مناطق الاسلام بتعدادها الكثيف .

كيف تدهور كل شىء..؟ أى حفرة تردى فيها كل نفيس فى حياتنا؟ وضعت مراكز القوى نظرية أهل الثقة وأهل الخبرة التى تقسم الشعب الى مدللين ومتهمين .. وهذه النظرية تطرد نظرية الرجل المناسب فى المكان المناسب . . أو تحرفها **فتكسر الميم** وتكسر معها مبادىء الحق والعدل والكفاءة فاذا بأهل الثقة ، فى أحسـن حالتهم ، حراس على المواقع التى وضعوا فيهـا لايعـرفون مخبرها أو جواهرها . ولكى يغطوا جهلهم ، يدعون العلم أو الاهمية !

اهم من أشخاصهم.وما فعلوا هل المال يزيد بالجراسة أم العمل ؟ قصارى الحراسة أن تجمده ولكن العمل يحييه والخبره تنميه . . وهو ما حدث لنا فالمال العام أما نهب أو تجمد وتجمدت معه الافكار والرجال الخبراء ، لان الخبرة متهمة وغير موثوق بها وغير مرغوبة .

• وفى غيبة القانون وخيبة الصحافة ، كل شىء ضاع •

ليس معنى هذا أن اهل الخبرة جميعا اطهار أبرار . . بل من اهل الثقه من أغنى فى موقعه ما لا يغنى غناءه ، أحد من قبل وخاصة أصحاب الثقافات ممن اجتمع لهم مع الحزم ، العلم وسعة الأفق ولكن ليس على الشاذ قياس . فالمنطق السليم يقول **أن البلد للجميع ، وأن الثروة البشرية الممثلة فى الكفاءات أساس نهضة الامم ... وأن التقدم لا يتحقق الا** اذا كان كل شىء **محسوبا**. فالانسان الصحيح فى المكان الصحيح. وللقانون وحده أن يحاسب المخطىء وحسابا عسيرا رادعا له ولغيره . . . . وفى حرية الصحافة ضمان يكشف الانحرافات . . .

ولا أدل على هذا من ٦ أكتوبر . . هل كان يستطيع مدنى أن يخطط للمعركة ويديرها ؟

هل يستطيع مهندس أن يجرى عملية جراحية ؟

لكل مكان انسان لا يملؤه غيره .

وفى أثناء هذه المحن استردت القناة وازدهانا يومئذ الفرح والزهو . وكان هتافنا طوعيا هذه المرة . ولعلها المرة الواحدة والوحيدة التى برىء فيها قولنا من الخوف . أو النفاق . ولكن فرحتنا لم تدم طويلا اذ تبينا أن القناة بدخلها الكبير لم تصب فى ريفنا الذى حفرها وسقاها بدمه ، وانما صبت فى جبال

اليمن الوعـــرة التى أخـــذت مـــع المـــال ، الرجـــال ... بعـــد ان البنا علينـــا الشرق والغرب . وصورت النكتة المصرية بذكائهـــا المشهود ، الجولة بمرارة تقطر دما حين أطلقت بدورها هذا الشعار (مصر . يمن . كوبا) وكانت مصر منكوبة بحق . كانت منكوبة بالفشل والهزائم ولم ينتصر (أسميا) الا المؤسسات والشركات التى أطلق عليها (النصر) .

لم يفكر أحد فى الانتفاع بدخل القناة فى تعمير الضفة الشرقية للقناة.. فى تعمير سينا مصدر الخطر ودرع الامان فى الوقت نفسه.. ولو عمرت سينا (بفيض) .و (فضل) الكثافـــة السكانيـــة فى الوادى ، وقام عليها البيت ، وفيها الولد ، لعز التفريط فيهـــا لأن الدفاع عنها عنـــدئذ دفـــاع عن العرض والأرض ، والرزق والحياة .. لو عمرت سينا لمـــا اجترأ العدو على اجتياحها ... واكتساحها مرتين فى هذه الحقبة المباركة .

لو كان عندنا مراكز دراسة نصرف عليها لعرفنا ان انجلترا عملت طويلا على فصل سيناء عن مصر بالايحاء وبالفعل منذ عينت عليها (براملى) حاكما عسكريا مما يدل على خطر سينا بالنسبة الى مصر ، وعلى أن سينا مطمح ومطمع للآخرين.ولكننا ضيعنا سينا فى الشمال بالحرب ، كما ضيعنا (جبل علبه) فى الجنوب بالســـلم والصمت ... وجبل علبه ـــ افتعلت انجلترا اقتطاع منطقة جبل علبه اداريا من مصر ســـنة ١٩٠٢ ـــ الذى لا يذكـــر فى كتبنا أو مدارسنا أو مجالسنا أو صحفنا منطقة أكبر مساحة من سينا وأغنى موارد طبيعية. وهى الآن تمثل الأعراف بيننا وبين السودان الشقيق. وطالمـــا نبه العلماء والدارسون منا الى وجوب العناية القومية والاجتماعية بهذه المنطقة فلم يسمع لهم أحـــد ... والعلم ليست له دولة بل كان تابعا للدولة وأجيرا اذا أراد ... شـــأنه شـــأن القانون الذى أمر بتتبيعه للدولة فلمـــا أبى لقى رجـــل القـــانون

فى مجلس الدولة ما لاقاه وهو الرجل الذى وضع الدساتير فى البلاد العربية شرفا وتشريفا لمصر ...

ما الذى شل السنتنا وعقولنا معا ؟

هل هو الجهاز الرهيب الذى كان دولة وحده ، أعلن جمال عبد الناصر سقوطها بعد النكسة ؟

هل هو التعذيب والتنكيل ، الذى كان يمارسه هذا الجهاز .

هل هو جهاز الشعارات الرنانة والطنانة وراءه مراكز القوى يأخذ علينا شارعنا واذننا وعيننا واماكن الجد واللهو على السواء ؟

هل هو النشيد المصرى والأغنية المصرية التى دخلت حلقة الذكر ؟

هل هو كل هؤلاء ؟

اجتمع علينا من مراكز القوى القمع والتضليل والزمر والطبل بل الرقص أيضا .

كل شىء ضاع .. كل ما بداخل الانسان المصرى من كرامة وقيم ومبادىء واباء ... ضاع يوم فرضت كما يقول توفيق الحكيم (الحراسة على مخ الانسان) .

ولكن توفيق الحكيم ما باله لم يقل هذا من قبل ؟ ان ندمه اليوم ذكاء خبيث أو خبث ذكى .. ما جدوى الاعتراف بالخطأ فى وقت ليس الشعب فيه بحاجة الى الاعتراف بعد أن سقطت الأقنعة وظهرت الحقيقة ...

انه مجرد تخفيف للحساب هو قناع من نوع أرقى يليق بأصحاب « الأفكار » .

لقد كتب نجيب محفوظ الكثير

وتوفيق الحكيم لم يكن مسحورا أو مخدوعا او (فاقد الوعى) مع الفاقدين كما يقول بدليل مسرحيته (السلطان الحائر) و (بنك القلق) اللتين لم يشر اليهما عامدا فيما أحسب وهما خير من التعلل بالتخدير والتسحير . ولكن (الحكيم) يغير مسكة (العصا) فيقبض عليها بحكمة من نوع آخر ، من (النص) لانه كما قال ، بعد أن حوم كثيرا ، من جيل قيدت حريته وتحرره **(روابط متصلة بهذا النظام)** .

النظام الذى اجتمعت علينا فيه من مراكز القوى المناهج والاذاعة والصحافة والوسائل الاعلامية لتصبنا فى قوالب مرسومة لنا ليغدو الانسان المصرى انسانا نمطيا كاليونفورم .. انسانا مقيدا بالحشدية ... مسلوب الحرية ... انسان حشد والحشد دهماء منظمة تسوق الى الخراب اذا قادها مثل هؤلاء .

ان الفرد فى حشد كبير ينحط خلقيا واجتماعيا كما يفعل الأمريكان عندما يجتمعون لتعذيب الزنوج فيأتون من ضروب الوحشية ما لا يتردى فيه انسان وحده ...

سئل يونج عن سر أزمة أوربا فقال فى كتابه :
The Undiscovered Self

هو ضياع قيمة الفرد .

الانسان الحقيقى ضاع وسط الأنظمة ، الظاهرية والسلطة المهيمنة . مثل هذا الانسان من السهل أن ينقلب الى النقيض لأنه أصلا لم يحقق ذاته ولم يحقق لها استقلالا خاصا فسرعان ما يتعرض **لتشقق شخصى وثقافى** ... وهو ما حدث للمثقفين المصريين على أيدى مراكز القوى .

غباء أن تفبرك العقول والأفكار ... وغباء أن تسوى بين العقول وقد خلقها الله متفاوتة متباينة الحظوظ من الذكاء ...

أن تفبرك العقول كفر بالدين الذى كرم الانســـان ودعاه الى التفكير واعترف بارادته يوم هداه (النجدين) وهما طريق الخير وطريق الشر ... **كفر بكل القيم ...**

لم يعــد العالم مهــددا بالكوارث الطبيعيــة أو الأوبئة ولكن بالتغيرات السيكولوجية كما يقول يونج ... ان أى اختلال يصيب التوازن فى رأس حاكم من الحكام يلقى العالم فى بحر من الدماء .

ويقـــول هربرت ريد فى كتابه « فلســـفة الفوضـــوية » (من الصعب الا تفسد السلطة . هنـــا تحتـــاج الى ضـــوابط نفسية كبيرة) وهنا نتذكر قوله تعـــالى (ان الانســـان ليطغى ان رآه استغنى) والغنى ألوان : النفوذ غنى والسلطة غنى .

اما الضوابط النفسية فتعين عليها أمة رشيدة لا عاطفية .

أمة تنتظر الاعمال لتحكم عليها قبل أن تغدق الثناء بغير حدود.. انه خطأنا .. !

لقد ابعدت مراكز القوى الانسان المصرى من الصورة فتمزق نفسيا وثقافيا وكاد ينسحق لولا بقية من ايمان حفظت عليه ذاته .. أن الطريق الى الله صلاة وصبر وعمل ذلك الفيتامين الذى لايبـــاع فى الصيدليات ولكن يهبه الله من يشاء من عباده .

ان الحركات الجماهيرية تنزلق فى وهم الأعداد الجمـــاهيرية وونط صخب الأغلبية **يمكن اختطاف الأمانى بالقوة .**

كيف يصنع الديكتاتور

الانسان الطفل هو الذى يعتمد على الحزب أو الزعيم أو الحكومة ... ومن هنا يكره الممتازون التبعية من أى لون ...

أما رجل الحشد فيتوهم أو يوهم أو يشبه له ان القمة ممثلة فى الحزب أو الحكومة تحقق له كل شىء ... حالة وهمية او الحلم الطفلى .. انه الارتداد الى جنة الرعاية الوالدية ... وعندما يسود الوهم بأن الحكومة على كل شىء قديرة ، يكون الطريق الى الاستبداد ممهدا ،وهنا يكون الاستعباد الفردى لاحقا بالضرورة والمنطق ....

لقد كان الناس فى العصور الوسطى يرون الانسان عالما صغيرا (ميكروكوزم) microcosm . وهى نظرة سليمة تربط الانسان ببيئته ، ودينه ... **ولا يمكن لاحد ان يسلب انسانا ، الهه** ، ومن حاولوا هذا فى العصر الحديث اعطوه الها آخر .

وحين يبتعد الانسان عن الدين يحدث له اضطراب عصابى .

وحين تتوقف المحبة ويحل الشك توجد القوة والعنف والرعب وزوار الفجر .

ان السعادة والرضا وتوازن النفس وثراء الحياة ، معان لا يمكن أن تخبرها الدولة بل يخبرها الفرد ...

دولة مراكز القوى جهاز يقمع الفرد فان أحسنت اليه فغالبـا ، تعمل على تعضيد أوهام الفرد لأنها لا تبنى نظرياتها على فهم وتفهم نفس الفرد فهى أصلا لم تقترب منه ولم تدرس احتياجاته الحقيقية ...

انها تعرف احتياجاتها هى لاستبقاء السلطة .

والمجتمع الذى يضيع فيه الفرد مجتمع متخلف ولو ملك المال والنفوذ وأحدث الوسائل . ومن هنا أدان « برناردشو » الحضارة الغربية فى كتابه (دليل المرأة الذكية) ، وأدان « ديوى » ، أمريكا ، فى كتابه عن الفردية القديمة والحديثة Individualism old and new.

لقد حاولت أوربا وامريكا اللتان نقلدهما سحب السجادة من تحت قدمى الفرد بالآلة ، والنمطية ، والحركات الحشدية اجتماعية وسياسية . الانسان الغربى انسان احصائى ... انسان متوسطات فذكاؤه من خلال متوسط الذكاء لمجموعته ومثل هذا يمكن أن يقال عن سائر قدراته . وهل يميز انسانا عن انسان الا صفة فريدة فيه ؟

حتى الأخلاق حين ضعف سلطان الدين غدت امورا تواضعية ما دام الفرد لا يحس بمسئوليته أمام الله . ذلك الشعور الذى يرتفع على القانون . فقد يستطيع الخاطىء أن يهرب أو يتهرب من القانون أو يفلت من العقاب ولكن صاحب الحس الدينى ، السلطة الرادعة فى داخله .

والدين ليس المبادىء الاخلاقية مهما كانت رفيعة ، وليس العقائد مهما كانت مستقيمة .

ليس هذه أو تلك فكلاهما لا يشكل الاساس لحرية الفرد من اسر (الحشدية) التى هى المجتمع أو الكتلة ...

والدين الذى اعنيه غير العقيدة . فالعقيـدة كما يقـول يونج اعتراف بالايمان،ولكن الدين غلاقة الفرد بالله او علاقـة الفرد بالتحـرر .

ان الولاء لعقيدة معينة ليس مسألة دينية ولكنها فى الغـالب مسألة اجتماعية فلا مفعول له ولا قدرة على منح الفرد أساساً يستند اليه ...

هذا حين يتغيا الدين المحافظـة على التوازن النفسى .. ان النفس الشعورية فى الانسان يمكن فى أى وقت أن تعوق وظائفها بوساطة احداث من الداخل والخارج لا يمكن التحكم فيها .. لهذا يلجأ الانسان فى القرارات الخطيرة الى القوة العليا تبركا بها ... المؤمن عنده (ارتكاز) .

ان النقد الذى يسمى نفسه مستنيرا حين يخضع الدين لنظريات عقلانية ، وتصوير ، محتواه ، مستحيلا ، يخطىء مثل هذا النقد الهدف والمرمى فلا يصيب الدين ولكن قصاراه أن ينتهى الى دين آخر هو **تاليه الدولة او الديكتاتور** .

ان الدين وظيفة طبيعية وجدت منذ البداية لا يمكن القضـاء عليها بالنقد العقلى الذى يعرض المعتقدات الـدينية على المنطق الذى يفضى الى السخرية منها .

سحق الفرد أو تضييعه لا يغتفر تحت اى اسم من الأسماء . فالكنيسة نفسها حين ربطت الفرد بها فى الغرب لم تفلح . ولهذا خرجت الحروب الدموية من القارة التى تدين بالمسيحية التى تقول ان الله محبـة .

الكنيسة فى الغرب حين ربطت الفرد بها افقدته الشعور بالمسئولية ... وكان الأخـلق بهـا أن تشـعره بقيمتـه ... بقيمـة الانسـان الذى كرمه الله واكرمه بالعقـل وقـدرة التفكير التى

يمتاز بها الإنسان ، ولو اخطأ ، على (الملاك) اى الملك . فالقدرة على الخطأ ميزة لاعيب حين تعنى هذه القدرة ، **التجريب** .. المحاولة والاجتهاد .. السعى . ولهذا يقول رسول الاسلام :

(من اخطأ فله اجر ومن اصاب فله اجران)

أما الذى يعيش فى القبة السماوية بعيدا مع النجوم بعيدا عن الاغراء والاغواء فان من العفة الا تجد .

ان الرعب الذى اوقعت فيه الديكتاتورية ، الانسان ، هو قمة الفظائع التى اقترفها الغرب . فحمامات الدم التى اغرقت الدول المسيحية فيها بعضها ، بعضا ، والجرائم التى ارتكبها المواطن الأوربى ضد الشعوب السمراء اثناء استعماره لها ، حلقة متصلة ...

ومثل هذا الرعب شكل فى بلدنا احيانا سحابة قاتمة فوق رءوسنا . **وقد حق للرعب والخوف والقهر الذى كان ، أن يحل محله رابطة من النوع الوجدانى** تعود معها بيننا الصلات الانسانية التى وهت وكاد يدمرها الشك والتوجس فبتنا فى حالة تقاعس اخلاقى شاهت معه الوجوه والنفوس وتاهت المعالم والصفات ... مع أن الانسان لايكون انسانا الا اذا كان له موقف تجاه النفس وتجاه الآخرين .

انسان ثراؤه ليس خارجيا واردا من ثقافة مكتسبة أو مذهب آخرين،ولكن ثراءه داخلى من صفاء الذات ورهافتها وكرامتها بالحرية ... انسان **هو نفسه موضوع وشخصية** .

اننا اذا اعتبرنا الثقافة نمو النفس فان هذا النمو لايتحقق الا فى جو من الحرية يتيح للنفس الانسانية الراقية أن تعطى ما لديها من الادراكات والمنجزات والطرح فلا يهيج ولا (يهج) مثقفونا الى الخارج فارين أو يائسين لأن المحيطين بهم عندهم نزوع (**نطوحى**) ضد المثقفين .

لقد أعتبر (كارليل) بثقافته، «نابليون» أنسانا متوسطا ولكن الفتره التى نتحدث عنها فترة نابليونية. كم من واحد فيها (عامل نابليون) ومن الأسف أن كثيرين منا صدقوا كثيرين منهم فعبـــادة الاسم فى الشرق رسم من رسومه كذلك التركى الذى أمضى الليل كله وهو يستمع الى صاحب الربابة وفى نهاية الليل قال له :

— اسمع قول حظرتكم شوية أبو زيد الهلالى علشان حظرتنا يكون مبسوط .

فرد عازف الربابة :

— كل ما سمعته كان عن (أبو زيد الهلالى) .

فتهلل وجه التركى وقال :

— لازم انا كنت مبسوط

* * *

وبعد هذا كله طار صوابنا عندما وقع العدوان . ان العدوان الحقيقى وقع قبله على العقول .. على القيم . فالتحرير الثقافى .. تحرير الكيان المصرى البشرى هو أساس كل تحرير ...

اننا ، باللاوعى الذى نعيش فيه فى حالة اغمـــاء قـــومى ، ولا صحوة لنا الا ان نبحث عن **المفتاح الذى أضــــعناه .. اعيـــدوا** **تقييم** وتقويم حياتنا وسلوكنا وتعليمنا ... **اعيدوا كتابة التاريخ .**

محكمة التاريخ

هل هناك مسئول واحد عن الصدع الذي حدث فى الشـخصية المصرية ؟

المدرسة المصرية آفة من آفات الشخصية المصرية .
والمطبخ المصرى آفة من آفات الشخصية المصرية .

والمرأة المصرية مسئولة بالدرجة الأولى عما نحن فيـه . انهـا مسئولة حتى عن أخطاء الرجل المصرى لأنه كان ابنا لها يوما ما فلم تشكله الا على هذه الصورة .

كيف تعلم المدرسة المصرية اليوم ، التاريخ ؟ ماذا تقول ؟ مدائح ملوكية كالأدب العربى .... هل نعرف أو يعرف أولادنا شيئا عن دور الشعب فىصنع التاريخ ؟ أعفيكم من الجواب فانى أعرفه .. لقد حدثونا وافاضوا عن أبطال الحروب أى الذين قتلوا أكثر ...، والملوك الكرام الذين رعوا العلم والعلماء ... رعاة العلم **هؤلاء** صادروا أيضا الرأى الحر ، ورموا أصحابه فى غيابات السجون.. بل حرقوا قرى باكملها لتنزل على رأيهم .

لا تأمنوا القاب التاريخ فكم من مأمون فيه غير مأمون ...

حتى الذين تحدثوا عنهم من السادة والقادة لم يستوفوا سيرتهم عن جهل أو عن علم ... من يدرى . ان كثيرين من هؤلاء كانوا أضعف من ذبابة على الرغم من قوتهم الظاهرة وسطوتهم الكاسرة ... ولعلهم فى ضعفهم وراء الكواليس ، أقرب الى القلب الانسانى منهم على المسرح فى أزياء التمثيل الملوكية أو العسكرية أو السياسية .

من الناس من يحارب الدجالين فى حياة المجتمع ثم يشيع الدجل فى التاريخ فيزيفون نسب الشعوب تارة ، وطورا يلبسون الاغتصاب ثوب الشرعية فيسمون الغزو تمدينا ، والاستخراب استعمارا وطمس الشخصية تطويرا ... الخ الأسماء الملفوفة أو المعكوفة ...

من المؤرخين مغرضون تملى عليه أهواؤهم ولم ينج من الغرض هيرودوت نفسه أبو التاريخ كما يقولون . والا فهل من الصدق قوله انه رأى فى مصر النساء تقضى حاجتها واقفة بينما الرجال يقضون الحاجة وهم قعود ؟ وهل من الصدق ما قاله وشايعه فيه بتلر ، وبلوتارك عن عروس النيل التى زعموا ان المصريين يلقونها فى النهر ليفيض ؟ بل قال به ابن كثير فى تفسيره ولو انه رواها بسند عن مجهول كما قال به فى تاريخه ابن عبد الحكم ؟

لقد اخترت هذه الأمثلة لأنها قريبة منا .

وهناك مؤرخون يجيدون ركوب ظهر الموجة فيكتبون ما يرضى الحاكم وان أخنق الحقيقة فكل من تولى قبله شر كله حين يستأثر عهده بالخير كله !

ولأمر ما فضل أرسطو ، الشعر ، على التاريخ .. ان كذبه التخيلى ، هو على الأقل رؤية بعيدة ولا يقصد بها التحريف والتحيف .

ولأننا نلقن تاريخ مصر ولا نقرؤه ، أضعنا المفتاح .

اننا نركز كثيرا على الهرم وهو منجز حضارى رائع ولكن تحويل المستنقعات أو أحراش البردى الى جنة خضراء منجز حضارى ايضا لا يقل عن بناء الأهرام فى دلالته على طاقة القدرة والارادة والبناء.

حقا ان الهرم الكبير ليس بناء فحسب ولكن وراءه ، الشخصية المبادرة التى أرادت فحققت بل قبله اعداد طويل قامت به شخصية « سنفرو » الذى اعد لمجد بناة الأهرام من بنيه .. عمل موظفين من الدرجة الأولى .. والمقصود بالموظف هنا قدرة التنظيم .. عمل الفنيين الحقيقيين ... ثم اننا متعجلون نقف مبهورين أمام الهرم الأكبر وكان يجب أن نبدأ بهرمى سنفرو فى دهشور ثم نتدرج الى الهرم الأكبر لنعيش التجربة ، ونحس المثابرة والاصرار ومحاولة التجويد ...

ومع هذا فالأهرام ليس منجز مصر الوحيد **فاللغة** ، منجز حضارى ، كالعمارة ، رائع . **والادارة** منجز حضارى بارع . **والرى** منجز حضارى كبير لأن الادارة التى ضبطت النهر هى سر من أسرار مصر . **والزراعة** منجز حضارى بعيد الأثر فهى دعوة الى الحياة بينما الصيد ازهاق حياة . لقد زرعت مصر الوادى فنشرت فيه النبات ، وزرعت الفكر حين قالت بـ « معات » وزرعت الحجر فشكلته فنونا .

الزراعة تثقيف للأرض فالمصريون حين حضروا الأرض للزراعة ، حضروها أيضا أى مدنوها ...

لقد علمونا مثلا أن (مينا) أول ملوك مصر القديمة . وأقول ان المدرسيين وحدهم هم الذين يبدءون التاريخ المصرى بمينا ... ولكن قبل مينا نشأت على هذا المكان ملحمة تاريخية من الجهاد

الحضارى ، رائعة .. ان السعى الحضارى المحسوب لمعبر ار الذى يجب أن يحسب لها يبلغ عشرات الالوف من السنين .

لقد وحد مصر قبل مينا ، أوزوريس وحورس ضد التفرقة والجدب أى سيت .

لقد تضافر النيل والانسان المصرى على اخراج هذه الملحمة .. فهناك دالات أنهار ولكن الأنهار ودالاتها فى غير مصر ، لم تخلق الحضارة بمستوى هذا الخلق .. **واهم من هذا لم تتواصل فيها الحضارة بغير انقطاع** كما حدث فى مصر ...

لقد عاش الانسان المصرى الفى سنة فى سعى حضارى قبل الأسرات والتكوين السياسى حيث حضر النيل المسرح للحضارة .. ووعى الانسان المصرى الدرس ومضمونه قيمتان كبيرتان :

* **الكل فى واحد** ى التعاون .

* **المعمل** اى التكاتف لدرء خطر الفيضان .

هنا فى هذا المكان جمع الانسان المصرى نفسه فى وحدة حضارية مستمعا الى نداء النيل الذى جمع نفسه من أنهار ...

علمونا ان الطبيعة فى مصر رتيبة ... وجنة مصر يصفها بالرتابة من لم يستدق حسه . فلكل بقعة من الأرض المصرية « روح » يشعر بهذا **الحضور** ، الزالف الى سقارة .....

للهرم روح ، ولميت رهينة اى منف روح وكيان مميز ... للكنائس روح وللمساجد روح ... للقاهرة روح ، وللصعيد روح ، ولمدن الشواطىء روح ... والفروق بين الأمكنة هو باب تمييز الفروق بين الأعمال المختلفة .

علمونا أن أسلافنا وثنيون ومعظم الذين تكلموا عن الديانة

المصرية القديمة شغلهم عنصر الخرافة فيها لا الجوهر .. ولهـذا ظلت الديانة المصرية القديمة فيها منطقة يلفها الغموض والتحريف. منطقة misunderstanding

لقد عرفت مصر القيم يوم وضعت كلمة (معات) وحققتها ... يوم وضعت الأخلاقيات .. وطرحها الرائع فى هـذا المجال لم يزد لا حق عليه شيئا جديدا ...

ان الديانة المصرية القديمة يظلمها من يسميها (وثنية) ويحكم عليها بعد خمود فورتها الحقيقيـة حين عاشوا ادراك وجـود الله من وراء المعبود المحسوس .

ولأمر ما وصفوا « منفتـاح » اله الفن المصرى فى نحتـه بانه يشكل أجسادا طاهرة تقبل الالهة أن تحل فيها ...

ان تواصل الحضارة بغير انقطاع دليل بر وخير ومجتمع متسالم لا وثنى ... مجتمع مستقر وقرير . ولهـذا جسـد الفن المصرى (السكينة) ... انه فن **النفس** المطمئنة لأنها فى هذا الكون تحس طمأنينة الدار الآمنة ... طمأنينة الوطن التوى وحماه .

لقد حققت مصر السكينة ثلاث مرات وبصور متعددة ورائعة :

فى العصر القديم .. ثم فى المسيحية .. ثم فى الاسلام .

ولم يحقق بلد السكينة فى انجازاته **بالكيف والكم** الذى حققتـه مصر ... ولا يستثنى من هذا الهند والصين على عظم وضخامة ما حققتاه .. ومن هنا يجب أن يشع كل شىء مصرى « السكينة » من قرار سحيق .

ان مصر بلد أول كتاب دينى كتبه الانسان .

انها بلد الايمان على الرغم من أنها غيرت شكل دينها عدة مرات

ولكن جوهر الدين فى قلبهـــا واحـــد عبر الاخناتونيـــة والمسيحية والاسلام وهو « توحيد » يتمثل فى وحـدة الله ووحدة الوجود .

ان الوجدان الدينى بالنسبة لمصر (القيمـــة) كالنيـــل بالنسبة لمصر (الأرض) .

ان من ينظر الى أبى الهول يحس الحضور المقدس .. الوجدان الدينى يمثله أبو الهول فى الغرب وجامع السلطان حسن فى الشرق .

والمصرى يحتوى ذاتيه حسا دينيا يقف وراء نظرته الى الحيـــاة والأشياء سواء فى هذا اخناتون وسانت أنطونيوس وابن الفارض . ان سانت أنطونى يمثل روح العبد بلا حجر أو جدار ..

الوجـــدان الدينى يدرك من يقترب من روح مصر ، فى الديانـــة المصريه القديمة وفى المجرد الانسانى ... واسلــــوب المصرى فى الجانبين يعكس هذا الحس الدينى كما يعكس حبه العابد للطبيعـــة المصرية .

الدين فى مصر وعى بالمقدس تم اتصال به ووصل .

ان ايمان مصر المبكر بالدين ممثلا فى التوحيد أو حتى فى عبادة من العبادات كالشمس أو النيل، طبعها على الحساسية واستشعار الواجب والايمان بالخير والفضـــيلة والجزاء والعقـــاب والثـــواب والرضا والرحمة والعدل ...

انها ماعت (معات) رمز العدالة والخير والحق .

مصر فى طبعها من الودادة والسماحة الرواح ما جعلها تجمـــع بين « ايزيس » و « سيت » بعد كل الذى فعله فى أوزوريس !! ونبكى على الحاكم الظـــالم وهى التى شقيت به،لأنه مات! وهى بعاطفيتها يشجيها الفراق ،وتبكيها المواقف يضعف فيهـــا الانسان ولو كان اصحابها الأعداء لا الأصدقاء .

هذه مصر التى لا يعرفها أهلهـــا حتى غــدا البيت المصرى فى القرن التاسع عشر يطلق على الشىء الذى يحلو فى عينه (عصملى) نسبة الى الأتراك العثمانيين . وفى القرن العشرين ، الحـــلو هو (الافرنكـــة) ثم صـــار (مســـتورد) أمـــا « الوحش » فهـــى « بلدى » ...

أين نحن من مصر وان دعونا انفسنا ، مصريين ؟

اننا كما قلت فى حالة اغماء قومى لو صح هذا التعبير ولا بد .. لكى نفيق منه ، من عودة الى المـــاضى لا للتشدق الأجـــوف به ، ولكن لاستلهامه واستكماله والا غدونا أقزاما كالأشجار التى تقص جذورها .. ففى اليابان عندما يريدون (قزمية) شجرة يقصـــون جذورها .

اسمع من يقول من أين نبدأ ... رايى ، المتحف المصرى نقطـــة انطلاق صحيحة لبث الوعى .. وعى من طراز جـــديد فى شـــبه الوعى واللاوعى الموجود حاليا . وقيمة المتحف المصرى فى المـــدى التاريخى الطويل مما لا يعطى عطاءه اى عمل فنى واحد مهما بلغ تمامه .

فى المتحف يستطيـــع المصرى أن يرى تاريخ مصر كيف ينســـج خيطا خيطا ...

فى المتحف حيث تبدأ الحضارة المصرية من قاعة العصر الحجرى لتنتهى الى ذروة كبيرة من ذرواتها حيث يقـــوم تمثـــال امنوفيس الثالث ، والد اخناتون ، والملكة تى زوجته وأولادهمـــا اى عصر الامبراطورية ... وعز الامبراطـــورية حيث كانت مصر ترفـــل فى النعمة وتشرق بالثقافة وتهنأ بالسلام فى هدنة من الحروب .

ان التاريخ المصرى جزء من الوعى المصرى ..

لقد علمونا او لقنونا بمعنى أصح ان الفلسفة من صنع يونان ..
وان مصر ليس لها فلسفة .

لقد تفلسفت مصر حين جعلت الفن للحياة وهذا خـلاف نظرية
الفن للفن .

الفن للفن سوءة وليس حسنة لانه يقف عند هـذه الغـاية ..
ولكن الفن للحياة معناه اثراء معنى الوجـود الانسـانى .. وفى
تواصل واستمرار .

رمزت مصر بالبقرة الى السـماء بل الى الطبيعـة لأن البقرة
عندها ودادة ورفق .. وداعة وحنان .. أمومة ورعاية وعطاء ..

لقد فهمت مصر (الرضاعة) فهما عميقا ... انها اتحـاد الأم
بالوليد ولهذا اشاع قدماء المصريين فى فنهم (الرضـاعة) فالملك
امنوفيس يرضع من الآلهة حتحور ، وحورس يرضـع من البقرة
التى هى رمز الطبيعة الأم .. فهو يتحد بالكون .

ان الآنوثة فى الحضارة المصرية صفة كونية بما هى رمز التلقى
والاستنبات والعطاء .

هذه هى فلسفة مصر .. فلسفتها غير المكتوبة .

لقد رسمت مصر القديمة البقرة شجرة . والشجرة لها ثدى
والانسان يرضع من الشجرة ، والمرأة لها قرنان ... لم يكن هذا
عبثا من الفنان المصرى بل فلسفة كبيرة ... انه يرمز الى وحدة
الكون فى غلاف من الرحمة التى وسعت كل شىء .. فالشـجرة
رمز عالم النبات والبقرة رمز عالم الحيوان ..

انها رهافة وجدان مصر التى فطنت من آلاف السنين الى ما يسميه
الانجليز اليوم : Unitive knowledge

وفى التصرف الاسلامى قصة تقول أن المريد طرق باب الحبيب فسمع السؤال : من ؟ فقال : أنا. فلم يفتح الباب فانصرف المريد.. وراجع نفسه ثم عاد مرة أخرى وطرق الباب .

ــ من ؟

ــ قال المريد : أنت

وهنا فقط فتح الباب .

لم يكن الخيال عند مصر شطحات سريالية بل كان خيالهـا عين داخلية بصيرة ترى ما لا يدركه البصر ... رؤيتهـا بعيدة .. بعيدة .. رؤية شفة مستشفة .

لقد احترمت مصر القديمة، الحيوان.. ولم تحترم مصر الحديثة، الانسان... لقد نجحت مصر فى الكشف عن كون الحيوان كجلى من مجالى القدسية فى هذا الوجود ولكن الذين لم يروا فى ديانة مصر الا الوثنية انما نظروا اليها فى عصور الضعف كما تنظر العين الى المصباح الخابى الكابى لا ترى فيه الا (الهباب) أو (سماد فانوس) . مصر عبدت الحيوان . نعم . لاحساسها بروعة الخلق فيه فهو جزء من الله بما هو مجلى من مجالى قدرته ...

الفرق بيننا وبينهم اننا نقرن (القرد) بالقرداتى . وهم كانوا يقرنون القرد **(بالحكمة)** ، فكان (تحوت) اله الحكمة .

الحيوان هو الحياة .. والله يسمى الدار الآخرة (الحيوان) كما أشرت ولكن مصر الحديثة هان عليها ، وفيها ، الانسان .

حتى الثعبان لم تنظر اليه مصر القديمة نظرة مسطحة بل رأت فيه على شره الظاهر ، تعبيرا عن الوجود الجذرى، فتشكل الجسم

فى التفافة مستديرة رهيبة تنمو منها الرقبة والرأس فى ارتفاع .. هذه الهيئة كالجذر والساق .

رأت مصر فى الثعبان ، على شره الظاهر ، تعبيرا عن الحيـــاة الفتية القوية الممتلئة البأس .. ولأمر ما سمت اللغة العربية أنثى الثعبان (حية) ... من حروف الحياة .

لهذا شاع رسم الثعبان فى الفن المصرى ... ان مصر القديمة عندها ادراك رهيف بتيار الحياة السارى من النجوم الى أعمـــاق الأرض .. من كائنات الخير الى كائنات الشر ... عندها شعور سيال الحياة الجارى .

هذه هى فلسفة مصر .

فلسفتها غير المكتوبة كما أشرت .

والرؤية المقدسة ، التى ترى ما وراء الشىء من خلاله كانت عند مصر القديمة والصين وحدهما ... قد يقـــول قائل : والهنـــد ؟ فأقول : لا . ان الهند فنها أدبى الطابع حتى المعبد عندها تركيبى كالجملة المفيدة . ولكن مصر والصـــين نفـــذتا الى أسرار الطبيعـــة والمعنى البعيد .

يقول بوذا (فى بداية الطـــريق — أى طريق المعرفـــة — كانت الأزهار أزهارا ، والجبال جبالا ، والبقر بقرا .. يشير الى التلقين الذى يلقنه الانســـان فيكون قنـــاعا يحجب عن العقـــل خـــوافى الأشياء) ...

وفى منتصف الطريق غدت الأزهار وهى ليست أزهارا ولا الجبال جبالا ، ولا البقر بقرا ... أى بالمعنى الحرفى لهذه المخلوقات .

وفى اللغة فرع يسمونه **(علم المعانى)** يهتم بأنواع الجمـــــل

وتقسيماتها واغراضها فى الخبر والانشاء مع أن اللغة ، أحيانا ، تقف بين الانسان والمعنى بدلا من أن توضحه .. وكذلك المعلم..

فحين يقول انجيل متى (طوبى للحزانى لأنهم يتعزون) لا يقصد الحزن بمعناه الكابى الذى يسترسل فيه أصحابه استجابة خفية أو مقصودة لظاهر هذه العبارة ، وانما يقصد الحزن الشفاف الذى يستشعره أصحابه من عمق احساسهم بعزلة الانسان فيهم عن الينبوع الأكبر .

هل يهم ازاء المعنى العميق لهذه الكلمة ان نعرف ما اذا كانت خبرا أو انشاء ؟

ونستطيع القول نفسه عن علم البيان وعن علم البديع اى عن فروع البلاغة الثلاثة ... ولو انفتحنا فى تعليمنا اللغة وبلاغتها على المفهوم الكبير للأدب، لتجاوز اهتمامنا الجزئيات الى الكليات.. وتحررنا من الألفاظ الى القطع الأدبية والأساليب وموسيقى الروح فى العمل الأدبى..أى تجاوزنا التقسيم القديم برمته لنقف وقفة واعية عند الفن ومدارسه وأساليبه .. وعند علم الجمال وعلم النفس.. ما هو الوجدان وما هو الخيال وما هو الذوق .. وما هى العواطف الانسانية التى ينبع عادة ، منها الأدب كسائر الفنون.. ان قيمة الأدب فى قدرة الكلمة التى هى الترجمة الكاملة عما فى النفس . ولكن البلاغة القديمة صيرت الغلاف هو الفن حين حسبت الكلمة برنينها وتقطيعاتها هي الفن ، وحين حبست اللغة فى القاموس فعزلتها عن الحياة بنبضها .

وهكذا نحتاج الى عملية مراجعة كبيرة .. تصفية وتنقية لتراثنا الفكرى والاجتماعى .... عملية مراجعة للتاريخ .

ومراجعة الحاضر أيضا بمواضعاته واعتباراته ومتناقضاته ، والوان السلوك ، لكى نعيد كتابة التاريخ .

المفاهيم الثابتة وكتابة التاريخ

١ - الأهرام والسخرة

من الافكار التى تدخل فى مجموعة المفاهيم الثابتة **بناء الهرم**... فالوطنيون المتحمسون يرون فيه **صرحا للعمارة والعلم** وبراعة الادارة وخلود الفن ... وآخرون وطنيون أيضا ولكن بطريقة اخرى ... فهم امعانا فى النظرية الأخرى وولاء لها يرون فيه **صرحا شاهدا على الاستعباد والسخرة**، فشاعر كبير مثل عزيز أباظة يقول عنه فى قصيدته (السد العالى) أن الهرم بنى بأيد مسخرة موثقة ! وكأن هناك منافسة بين الهرم والسد !

أما الفاتحون ممن تحكمهم عقدة المجد فهم يحسون ثقل الهرم على نفوسهم وقد حاول بعضهم فعلا هدمه فلم ينالوا منه غير ثمانية أمتار فى قمته كانت كافية للدلالة على حمقهم وبقى الهرم... وحاول بعض آخر من شدة احساسه بعجزه أمام الآثار المصرية ان يكسر أنف ابى الهول ليطامن من شموخه . وفى الأدب الشعبى يكنى بالتعبير (يكسر أنفه) عن الاذلال والتحطيم . ولكن أبا الهول ظل رابضا ساخرا فى كبرياء ... ساخرا من كل دخيل . لم يخسر شيئا حين خسر الدخلاء كل شىء ...

دعنا من الحانقين والمحبين على السواء . ما هو وجه الحقيقة في هذا الموضوع ؟

هرمان يونكر يرى (أن ما فيه من اتقان لا يمكن أن يحققه عامل مستعبد) وفى رأيى أن الاستعباد قد يستطيع أن يبنى هرما ولكنه لا يستطيع أن يحقق اتقانا أو يفجر فنا سعيدا فى ، بغددة ذالنقش فى الهرم وفى المعابد المصرية فيه فرحة وغنائية يندر وجودها فى فن آخر . والمعبد بتقسيم الجدار والسقف صخرة منحوتة بحساب نفس متبلورة غنية الأبعاد ..

من الهرم الكبير الى الخرزة الصغيرة .

من الايجاز الى الاسهاب .

أبعاد غنية من الوفرة وراءها خيال له رؤية داخلية تنفذ من السطح الى العمق البعيد .

كان يشرف على حفريات سقارة مدير يقول :

(عندما اسمع دقة الأزميل حزينة أعرف أن هناك خطأ فى العمل !! وعندما أسمعه سعيدا — من سعادة العامل — أعرف أن العمل مضبوط ..)

جاء فى « تاريخ العلم » لجورج سارتون (أن متوسط الخطأ فى طول جوانب الهرم لايعدو ١ : ٤٠٠٠ وأن الخطأ فى عمليات التربيع التى استخدمت فيه لايعدو كسرا عشريا يساوى دقيقة واثنتى عشر ثانية ، وأن معدل الخطأ فى ضبط ضلعيه الشرقى والغربى لا يزيد عن ٣ : ١٠٠ ، وأن الفواصل بين الأحجار لا تزيد عن نصف ملليمتر ....)

هل كان عمال الهرم سعداء .. ؟

ترينـــة أخرى غير (الاتقان) يضـــيفها الكسندر شارف وهى حرص الطبقات الكادحـــة على أن تدفن على مقربة من هرم خوفو بعد موته بأربعة قرون بما رسخ فى نفوس الشـــعب من سيرته ومآثره .

أى أن الأهرامات كانت مســاجد ذلك العصر نبناتهـــا كانوا يتبركون ببنائها .

يقول الدكتور أحمد فخرى (١) (ان دارس التـــاريخ يجب ألا ينسى أنه من الخطأ الكبير أن تحكم على ما حدث فى العصور الماضية بآرائنا الحالية ، أو ما نؤمن به الآن من قيم أخلاقية أو مبادىء . كان خوفو ملكا مقدسا ، ولا شـــك أن رعاياه كان يسعدهم أن يشتركوا فى اقامة مبانيه الخالدة ، وقـــد شيدت فى أيامه كثير من آيات العمارة والفن . فاذا كان هذا الشخص حقيقة ملكا ظالمـــا متسلطا عاتيا فمن غير المعقول أن يكون فى استطاعته ترك البلاد فى حالة اقتصادية مستقرة ساعدت ابنه (خفرع) على بناء الهرم الثانى ، وهو بناء يكاد يمـــاثل هرم أبيه فى عظمتـــه . واذا كان لادعاءات أولئك الكتاب ـــ المعارضين ـــ أى نصيب من الحقيقه لاستحال الاستمرار فى حفظ الطقوس الـــدينية الخاصـــة بالملك (خوفو) قرونا كثيرة ، فلدينا من العصر البطلمى ، أى أكثر من الفى سنة بعد موته ، آثار تشير الى استمرار وجود كهنة « خوفو » حتى ذلك العهد) .

وعلى النقيض من هـــذا ، المؤرخ الشهير « بلينى » الـــذى لم ير فى الأهرامات الا (استعراضا سخيفا ، لا فائدة منه ، لثروة الملوك) ولكنه لم يلبث أن تســـاءل فى دهشـــة لا تخفى : كيف استطاعوا رفع الأحجار الى هذا الارتفاع العظيم ؟

---

(١) كتاب « الأهرامات المصرية » ص ١٥١ .

ويبدو ان « بلينى » لم يكن ، فى دهشته ، وحده فقد راع الهرم ، الكثيرين حتى لقد قدم بعض المغرمين بالاحصائيات ، كما يقول الدكتور فخرى ، كثيرا من العمليات الحسابية ليعقدوا مقارنات بين ارتفاعه وحجمه وبين الآثار الأخرى الشهيرة. واستنادا الى تلك التقديرات يقول عالم الأثريات أن (مساحة الهرم الأكبر يمكن أن تتسع لمجلس البرلمان وكاتدرائية القديس بولس فى انجلترا ، ويبقى منها بعد ذلك مكان كبير غير مشغول. وهناك حسبة أخرى يتضح منها ان المساحة التى تشغلها قاعدة الهرم تكفى لأن تشيد فيها كاتدرائيات فلورنسا وميلانو والقديس بطرس فى روما ، وكذلك كاتدرائية القديس بولس وديروستمنستر فى لندن .

ولو اننا قطعنا جميع احجار الهرم الى احجار صغيرة ، حجم كل منها قدم مربعة واحدة ، ووضعنا هذه الأحجار كل منها الى جانب الآخر لأصبح طولها ثلثى طول الكرة الأرضية عند خط الاستواء . وعندما كان نابليون فى مصر حسب أنه يوجد فى الهرم الأكبر ، وما جاوره من أهرامات ، أحجار تكفى لاقامة سور حول فرنسا ارتفاعه ثلاثة أمتار وسمكه متر واحد ، وقد أيد أحد الرياضيين الذين كانوا بين علماء الحملة الفرنسية هذا التقدير الذى حسبه نابليون) .

ويغيب فى البهر حقيقة أخرى رائعة وهى **الطرق الصاعدة** التى أكدت الاكتشافات الأثرية وجودها بالضرورة لبناء أى هرم. وتشييد الطرق الصاعدة عمل كبير ومجهود ضخم لايكاد يقل عن تشييد الهرم نفسه) .

وغير الطرق الصاعدة يلحق بكل هرم معبد جنازى وهيكل وسفن وسور خارجى مما يسمونه (المجموعة الهرمية) .

يقول الدكتور فخرى مرة أخرى (ان العقل ليحار اذا ما أعملنا التفكير فى كمية العمل الذى يحتاج اليها مثل هــذا البناء حتى لو استخدمنا المعدات الميكانيكية الحديثة ...)

ومع هذا لم يروا هم فى هذا العمل شيئا محيرا بل شيئايستحق الذكر !! فلم تشر نصوصهم المدونة فى الأهرام أو غيرها الى عمليه البناء ، أو وصفها !! ترى ما الذى يستحق الاشارة فى نظرهم بله الحديث ؟!

جورج سارتون يقول فى (تاريخ العلم) ، (انه مع التسليم بأن المهندسين المصريين أحلوا القوة البشرية محل القوة الآلية فىتشييد هرمهم ، الا أن ذلك لا يفسر المعجزات الفنيــة والمعمــارية التى تجمعت فى بنائه ، وانما يضيف اليها معجزات بشرية لا تقل عنها فى صعوبة تفسيرها ، ذلك انه من السهل أن نتحدث عن حشــد آلاف من الرجال ، وليكونوا ثلاثين الف رجل مثلا ، للقيام معــا بعمل شاق ، ولكن كيف تم تشغيلهم ؟ وكيف تم تــدريب الفنيين منهم ؟ وكيف أمكن تحقيق التعاون بينهم ؟ وسواء تأتت القــوة اللازمة لعمل من الأعمــال عن محرك آلى أم عن كتلة بشرية ، فان ترتيب هذا العمل وتنفيذه يتطلبان ذكاء ناضجا للتنسيق بين العمل والعمال) .

ونعود الى النقطة الأولى هل تم البناء رهبة أو رغبة ؟ سخرة أو رضاء ؟

الدكتور عبد العزيز صالح أشار الى أنالبناء كان يجرى فىمواسم الفيضان والى أن البناء كان يعفى منه طوائف المتعلمين من موظفى الحكومة وكهنة المعابد وربما كبار الشخصــيات من أهل المــدن والقرى أيضا أى كان قاصرا على اليدويين .

كما اشار الى أن العمال كانوا مسحرين بالعقيــدة الــدينية

فالملك كان رأس الديانة ووريث الأرباب ، من النـــاحية النظرية على أقل تقدير بل كان يعتبر ملكا فى الآخرة أيضـــا والجهـــد فى سبيله شفاعة .

كما أشار الى أن العمال خصصت لهم شون الغلال وخصصت لهم مساكن لايوائهم ولم يتركوا فى العراء وقدم لهم الطعام والشراب وتضمنت النصوص قول بعض من تولوا رياسة الأتباع والصناع

(لم أضرب انسانا وقع تحت يدى ولم أستعبد احدا فى العمل) وقول أحد أثرياء الأسرة الرابعة :

(كل صانع عمل فى مقبرتى أرضيته)

وقول آخر (انفقت على قبرى هذا من مناعى الحلال ولم يحدث اطلاقا أن اغتصبت متاع شخص ما)

يقول الدكتور عبد العزيز صالح : (ليس من شك فى ان مثل هذه الاقوال لا تخلو من مبالغات يستقبل الشـــخص بها حيـــاته الأخرى ، ولكن ليس من شك كذلك فى انهـــا لا تخلو من امارات صدق . والواقع انه اذا كان لكل طائفة من الحكـــام آفة ، وكان من آفة حكام بلاد النهرين الأقدمين حب البطش وســـفك الـــدماء والنهم الى الجبروت ، وكان من أمر الحـــكام الرومان الأقدمـــين مثل أمرهم ، وكان من آفة حكام العصور الوسطى بذل جانب كبير من موارد دولهم وبيوت أموالها فى سبيل بناء القصـــور وحيـــاة الاستمتاع ومدائح الشعراء فقد كان من آفة الفراعنـــة المصريين أنهم وجهوا جانبا كبيرا من موارد أرضـــهم الى صـــالح المصـــاطب والمقابر والأهرام ...)

❋ ❋ ❋

وقد يتساءل بعض الناس لمـــاذا لم يهتموا بالنواحى العمرانية التى تعود على الشعب كله بالخير ؟

وهنا أقول ان ملوك الأهرام بــذلوا الكثير من أجــل التعمير والتحضير وبعض هذا ، **الزراعة** ، علم ذلك العصر وصناعته بما وراءها من رى وشق الترع والقنوات ، والتقويم الســنوى وكل ما حمله عصرهم من حضاره بفنونها وعلومها ... فعلوا هذا قبل **بناء الأهرام** بل لعلهــم بسبب هــذا كله وبه ، بنوا الاهرام ... بعائد الزراعة وخيرها ، وبدافع استمراء نعيمها واستبقائه بعــد الحياة . فما يفكر فى الخلودمحروم أو مجهود ولكن نعيم الحياة فى مصر جعل جنة المصريين ، مصر خالدة .

***

بل ان أمين سامى (باشا) صاحب كتاب تقويم النيل يقول فى جزء (مصر والنيل) برأى جديد مضــمونه ان النيل كان يجرى فى ذلك العهد بالقرب من الهرم . فكانت الرمال تطمر مجراه . وكانوا يقاسون فى ازالتها أشد العذاب فبنوا الهرم ذا السطوح المــائلة التى اذا سقطت عليها الرمال كانت زاوية السقوط مساوية زاوية الانعكاس . وضمنوه فوائد أخرى منها أنه يمكن به تعيين الجهات ومعرفة الفصول .

ودفن خوفو به من قبيل دفن أصحاب المساجد فيها .

حين نعيدكتابة التاريخ يجب أن يعرف النشء وجوه الرأى فى هذا الموضوع ليحكم بنفسه لنفسه وحتى لا يقــع ضــحية آراء مغرضة ، أو حانقة ، أو خاطئة ، أو متورطة مسايرة ومجاملة

لمــاذا الأهرام دون سائر الآثار فى مختلف الحضارات القديمة تسلط عليها فكرة السخرة ؟ مع أنهــا بنيت فى بيئــات لا تنتظر انحسار فيضان ، أو يوثق علاقتها بالحاكم نهر معبود يجعل مرضاته باعتباره سيد النيل ، بركة وضرورة معا ؟

لمــاذا لا يقال ان سقارة حقق فيها المصريون حبهم للنور فأبو

الهـول فى هيئته وموضـعه من الهضـبة بكل ما فيه من قرار واستقرار وطمأنينة يمثل فكرة انتظار مشرق الشمس .. والهرم نفسـه مصعد الى الشمس فانها (عندما تسقط مضيئة بين فجوات السحب فى السماء فانها تظهر كما لو كانت أهراما هائلة الحجم تربط بين السماء والارض . وتقرأ فى أكثر من موضع فى نصوص الاهرام وصفا للملك الميت وهو يستخدم أشعة الشمس كطريق صاعد يرقى عليه الى السماء .)

هذا الكيان الرياضى الصارم الأخـاذ الجليل .. انه طائر ذو أربعة أجنحة ولهذا يجب على من يزوره أن يقف قبالة الزاوية ثم يرفع بصره الى القمة ويحتضنه من الجنـاحين فى عملية تجسيد للنفيس وللوجود البشرى المصرى .

انه وعاء للزمن فيه كينونة وراء صيرورة الأيام .

انه حوار بين الانسان والمطلق .. كتلة تطمئنه وسط الفضاء اللانهائى ... كتلة تملأ جزءا من الفراغ ثم عاد الانسان المصرى فلغاها حين صقل سطح الهرم بالطلاء الأبيض استزادة من النور. وهذه الثنائية فى الشعور عبرت عنه أساطيرنا حين جعلت البطل يقدم رجلا ويؤخر أخرى .

الهرم رؤية لأجيال مجتمعة فى رائعة فنية .

أى انه اشارة الصمود والثبات فى الشخصية المصرية .

٣ ـ أسماء وراءها مواقف « فرعون »

قالوا (فرعون) وعنوا باللفظة التجبر والتكبر،وأحيانا الشر والكفر فيقول المثل (تحسبه موسى تلاقيه فرعون) .

وعند المثقفين المصريين يعنى لفظ (الفراعنة) المجد كله والفخر كله . لنناقش كلمة (فرعون) .

كيف تكونت ؟ ما هى دلالتها ؟

يقول الدكتور عبد العزيز صـــالح انه لقب (جمع بين صيغة مصرية قديمة ، وصيغة عبرية قديمة ، وصيغة عربيـــة قديمة . صيغته المصرية القديمة برعا أو برعو «وتشبهها الصيغة الاشورية برؤو أو برعو» وصـــيغته العبرية « فرعو » بعد قلب الباء فاء « وتشبهها الصيغة الأغريقية فاراو » وصيغته العربية «فرعون» بعد اضافة نون أخيرة .

أما الصيغة المصرية فهى تعنى البيت العالى،أو البيت العظيم. وتلقيب الملوك والرؤساء ، شىء معروف فى القـــديم بل لا يزال مالوفا فى عصرنا الحاضر) .

ما الذى يجعل هذا اللقب سيء الوقع عند بعض الناس ؟

هل هو فرعون موسى ؟

هل من طبيعة البشر أو طبيعة الاشياء أن يصدق فرعون بكل هيله وهيلمانه ، وللوهلة الأولى ، داعيا ، فى نفسه منه ما فيها ...

وقد كذبت قريش بعد أن تطعت الانســـانية من عمر الزمن دهورا بعده ، الزكى السرى الصادق الأمين وهو فى الذؤابة منها شرفا ومحتدا ؟ لم يكن عندها عذر عصبية الجنس أو عقدة الثأر القديم أو مبرر الاستعلاء .

لقد كان موسى فى نظر فرعون كما جاء فى القرآن الكريم قاتل أحد رجاله وهو فى نظره ، ربيب قصره حتى ليقول له فى عتـــاب أو تأنيب أو كليهما : (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين .. وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين).

ولم ينكر موسى (قال فعلتها اذا **وانا من الضالين**) .

سورة الشعراء الآيات ١٧و١٨ و ١٩

كيف ؟

القرآن الكريم يقول : (ودخل المدينة **على حين غفلة من أهلها** فوجد فيها رجلين يقتتلان هـــذا من شـــيعته وهـــذا من عـــدوه فاســـتغاثه الذى من شـــيعته على الذى من عـــدوه **فـــوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان** انه عدو مضل مبين .

قـــال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفـــور الرحيم .

قال رب بما أنعمت على فلن أكون **ظهيرا للمجرمين**)
سورة القصص الآيات ١٤ و ١٥ و ١٦

(قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) القصص آية ٣٢

الا يخطىء من ليسوا أنبياء ؟

وعندما يخطىء فرعون موسى هل ينسحب هذا الخطأ على كل فرعون ؟

الم يكن اخناتون متساميا موحدا نبيلا ؟

هل كل ملوك الفرس قمبيز ؟

هل كل خلفاء بنى العباس ، السفاح ؟

هل كل الفاطميين « الحاكم » ؟

واذا جاز أن يحسب **علينا** خطأ فرعون واحد فان من المقابل ، أن يحسب **لنا** أمجاد فراعين ، يكفى الواحد منهم أمة بأسرها فى باب المفاخر ....

على ان من أئمة المسلمين والواصلين من برأ فرعون من الكفر . فالامام محيى الدين بن عربى يقول فى كتابه « فصوص الحكم » (بايمان فرعون ايمانا لازما ، وأنه قد لقى ربه طاهرا مطهرا ، سالما من العيب ، بريئا من الذنب) وظاهره فى هذا الامام جلال الدين الدوانى فى رسالته الخطية الموجودة بدار الكتب . مستندين الى الآية الكريمة (آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) سورة يونس آية ٩٠ ، وجعله ابن عربى ، آية على عنايته سبحانه لمن يشاء حتى لاييأس أحد من الله تعالى .

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هوالغفور الرحيم) .

واخيرا اسم مصر

حين احتجب اسم مصر قال لى صديق فنان ممن يحبون مصر حبا خاصا ... هونى على نفسك وهل الذى احتجب الاسم الأصلى ؟

كثيرون ومنهم مثقفون يعتقدون أن اسم (مصر) هو ، التسمية العربية أى تسمية حادثة فى القرن السابع الميلادى فهى ليست بالاسم الأول القديم .

والحقيقة أن المصريين القدماء فتنوا بواديهم الأخضر وسموه اكثر من اسم . فهو ، أى مصر ، عندهم (كيمه) أى السمراء ، و (تاكيمة) أى الخمرية ، و « تاوى » أى الأرضين و (ايدبوى) أى الضفتين . ولم يكتفوا بهذا كله بل اضفوا عليها من ولعهم بها صفات شاعرية كما يدلل المرموق المعشوق فقالوا « ايره رع » أى عين الشمس او عين رب الشمس وقالوا « وجاة نثرو » أى عين رب الأرباب و « اترتى » أى ذات المحرابين و « باقة » أى الزيتونة فهى خضراء دائما ..

أما جيرانهم من كنعانيين وأشوريين وفينيقيين وبابليين فكانوا يسمونها مصرى ومشرى ومصر ومصرم ومصرايم « التوراة » ومصرين وختمها القرآن الكريم بلفظة مصر .

ومن الوثائق الخارجية المحفوظة رسالة بعث بها أمير كنعانى فى الربع الثانى للقرن الرابع عشر ق . م يطلب حماية فرعون ويستأذنه فى ارسال أهله الى « مناتو مصرى » أى الى أرض مصر .

اذن كلمة مصر تمتد فى الزمن الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

وتقارب هذه اللغات فى اسم مصر يطرح احتمالا مؤداه أن هذه اللغات أخذته أصلا عن أصحابه ... عن اللغة المصرية القديمة فأن أسماء الأعلام تؤخذ كما هى الى حد بعيد ...

يقول الدكتور عبد العزيز صالح (ليس من المستبعد اطلاقا أن تؤدى الكشوف الأثرية المقبلة الى اظهار وثائق مصرية تذكر اسم مصر فى صراحة ، ولكن حتى تظهـر هـذه الوثائق يمكن ترتيب الآراء المحتملة فى ضوء المصادر المعروفة حتى الآن فى تحليل اسم مصر ومترادفاته القديمة ، فى أربعة آراء تنتهى جميعها الى اعتباره لفظا ساميا مشتركا يؤدى معانى الحاجز والحـد والسـور ، ويترجم عن صفتى الحصانة والحماية) .

ويؤيد هذا الرأى ما نراه فى النقوش والرسوم والتماثيل من احاطة كل عزيز عليهم وخاصة ملوكهم بقـرص الشمس المجنـح وبماء النيل وتسرب هذا عبر الزمن ، الينا فى قول ابن البلد (مصر المحروسة) .

ومن حب المصريين مصر ، كان قدماؤهم يسمون انفسهم شعب الشمس ، والشعب النبيل ، وشعب الاله .بل تصوروا انهم نبعة منـه صيغت من جسمه ، أو أنهم خلقـوا من عينـه ونزلوا من دموعه .وكان مليكهم كان ينطق بلسانهـم جميعـا (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟).

قد تكون القوة والثراء والرخاء والسيادة ... قد تكون هـذه الصفات مجتمعة ومتفرقة ازدهتهم فوصفوا انفسهم بهذه الصفات. ولكن عصور الضعف بما تورثه من تخلف وتسيب وانحطاط هل كان الشعب المصرى يرى نفسه ، فيها ، دموع الله أم دموعه هـو ؟

فى عصور القوة بمكاسبها .

وفى عصور الضعف بمثالبها .

نحن مصريون .

٣- مصـــر والغـــزاة

قالوا ان مصر تعاقب عليها الغزاة وقصـــدوا بهـــذا أن يرموا الشعب المصرى بالاستكانة والخضوع .بل حاول الاستعمار تعميق هذا المعنى فى نفس الشعب حتى يستسلم لقدره فيه .

قضية أو نظرية آن الأوان لكى نناقشها :

زرعت مصر الوادى فكيفها النبات وعـــالم الزراعة المتجـــدد ابدا ... الهمها فكرة الخلود .. لمـــاذا لا تتجدد النفس المصرية هى الأخرى ؟ عالم الزراعة اكسب مصر صفة الثبات الدائم ... ان التقلبات لا تثير المصرى كثـــيرا ... **انه هـــو البـــاقى وكل العواصف تزول .**

لم يضع هدرا ، النضج الحضارى الذى اســـتقر فى أعمـــاق الانسان المصرى والذى كثيرا ما يكون قد قر تحت قشرة متواضعة أو خشنة أو فقيرة ، ولكن المصرى المتواضـــع أو الفقـــير يعرف (الأصول) و (العيب) . يقول الدكتور زكى نجيب محمود :

(كان من المستحيل على المصرى أن يجتاز هـــذه الحضارات التى يكمل بعضها بعضا دون أن يمتص رحيقها .. ومن بين ذلك

الرحيق أن يفرق بين ما هو عابر وما هـو دائم ... ومن هنـا جاءت صفة الصبر عنده .. وجاءت صفة السكينة والهدوء التى يقابل بها الأحداث عادة لانه موقن أن المستقبلله آخر الأمر ...)

❋ ❋ ❋

ان الغزاة فى القديم غزوا مصر بعد أن نعمت طويلا بالحـرية والرخاء والفن . والأمم كالأفـراد يضعفهـا الترف . وكل أمـة يتعاورها المجد والاضمحلال...لم توجد الأمة التى أطرد مستواها على وتيرة واحدة ... تلك الأيام نداولها بين الناس .

ثم ان النصر فى الحرب لا يدل على افضلية مطلقة ... هـل تزن اسبرطة فى التاريخ وزن أثينا وهى التى قهرتها وحكمتهـا ؟ اين اسبرطة من أثينا فى القديم والحديث ؟ .

ان الذى القى القنبلة على هيروشيما كان يعمل لحساب رئيسه فى امريكا،فلا يدل هذا على أن القائد الأمريكى أكفـأ من القـائد اليابانى .

هذا حين لا تصلح الغاندية بدون غاندى .

ان الفكرة أخلد من العصا .

ان فرنسا هى الأوبرا وفولتير وروسو ... وانجلترا هى بيكون وشكسبير .

الأمم بالرءوس لا بالعضلات .

ويوم يسود الفكر سيبطل عمـل الجيـوش . ان الذى أنهى حرب فيتنام أن وجد بين المجندين الأمريكيين من يقـول لمـاذا ؟ (ليـه ؟) .

والذى أنهى استعمار فرنسا للجزائر أن قالت فرقـة فرنسية امرت بالسير الى الجزائر لمـاذا ؟ (ليـه ؟) .

مثل هذه الأصوات تفيق الطغاة ..

لقد قتلت القوة الغاشمة ارشميدس بخبطة عصــا .. وكذلك العالم الفرنسى « لا فوازيه » فى لهيب الثورة الفرنسية ...

ان العالم القديم كان اشبه بموجات .... تعلو دوله موجة ، وتمتد ثم تهبط وتنحسر لتاتى وراءها موجة أخرى . وهكذا بدات مصر العرض .

وهى فى جميع الأحوال لم تغب الأضـــواء عن تسماتها . ولما جاء الاسلام كان يحمل معنى ونظرية « الأمة الواحدة » (كنتم خير أمة أخرجت للناس) . فكل وال مسلم غلب اسلامه جنسيته ، فلم تحس مصر بالغربة خاصة بعد اعتناقها الاسلام ثم تحمسها له وهبتها للدفاع عنه ووقفتها معه وتمكينها له . لقد استقبلت مصر، الاسلام ، بما فيه منها ... وبحسها الحضارى بما فيه من انفتاح على الفكر وانشراح واحتضـــان للقيم .... تجـــاوبت مصر مع الاسلام .... أخذت منه وأعطته على العكس من تركيا .. لأن الأتراك أمة حرب ليس من طبعهم الســماحة والوداعة والرحمة والشفافية حتى التقى منهم كان فى عنجهية .. فقد روى الدكتور أحمد أمين أن التركى كان يقف بباب المسجد وفى يده كرباج يجلد به الرائحين والغادين ليدخلوا المسجد ويؤدوا الصلاة !

حتى الخلافة الاسلامية التى هبطت على تركيــا من السماء ، لم تستفد من هالتها وبركتها فلم تتفقه فى الدين،ولم تعدل فى الحكم، ولم تتبحر فى العلم،ولم يشف وجدانها أو تتثقف روحها .

كان زواجها من الاسلام عقيما وانتهى بالطلاق على يد أتاتورك. وهى نهاية طبيعية على الرغم من فزع الكثيرين فى وقتها. ولم تجد نصيحة شوقى لها (يا دولة السيف كونى دولة القلم) لأن القلم موهبة وعطاء (يؤتى) و (لا يكون) ...

ثم يأتى كاتب مثل Levonian يشغل عمادة مدرسة الدين فى اثينا ويحكم على العقلية الاسلامية بما اقترفته تركيا فى الخلافة

فى كتابه : Moslem Mentality

وعدوا على مصر قائمة من أسماء الحكام ... ان ابن طولون والاخشيد والمعز وصلاح الدين كل هؤلاء اتخذوها منطلقا وحكموا **منها** ، **وبها** قبل أن يحكموها .

حكموا باسم مصر وتوسعوا فى الفتح بطاقات مصر واسسوا الدول يظاهرهم موقع مصر وثروتها وقدراتها الكثيرة مما لم يتوفر لهم فى بلادهم الأصلية وبين أقوامهم .... **انها عبقرية المكان أو روح المكان بها وهبه من امتياز** الموقع وشخصية الحضور فان الوجود فى **مصر شىء فى ذاته** يمنح صاحبه من طاقة القدرة ما لم يمنحه حتى فى بلده الأصيل . والمثل عندى صلاح الدين ونور الدين فليس الأول بخيرهما ولكنه الأسعد حظا بوقفة مصر معه .. تعرف هذا مصر فضلا عن اعتبار الدين واللغة . ولهذا عندما جاء الأجنبى الحقيقى نابليون لم تطقه فلم ينصرم على وجوده القلق بها ثلاث سنوات حتى كانت أجلته جلاء تاما عن ترابها . وليست مصر بدعا فى هذا فقد استطاعت البابوية أن تحكم أوربا على الرغم من الحدود قرونا بتأثير الفكرة الدينية .

الم يدافع زعماء منا متطرفون فى وطنيتهم متحمسون فى حبهم لمصر عن السلطان التركى باعتباره الخليفة وامير المؤمنين ؟ ...

من يدرى لعل كثيرين نظروا الى سليم الأول على انه المنقذ من المماليك ! أو الرمضاء .

بل ليكن الحاكم من يكون فسد أم صلح ما دام لا يتعرض للأرض أو العرض أو الرزق . أما اذا مس أحد هؤلاء فان مصر تتمرد عليه كاعصى ما تكون أمة كما يقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن سعد زغلول .

وليكن هناك ناس عندهم استعداد أو موهبة الحكم . هل معاوية فى التاريخ خير من على ؟ ان أصحاب القيم عادة لا يصلحون لحمل العصا . لقد رفض كثير من القضاة ، القضاء والولاية

ومنهم رجلنا الليث بن سعد . لقد عرض عليه حكم مصر فرفض كما رفض القضاء ولكن السلطان والقاضى كان كل منهما يغشى فى نوائبه وحوائجه مجلس الليث التماسا للرأى أو التأييد فان استحقه جاد عليه به أمام مصر وفتيهها . واذا أنكر رجلنا الليث من السلطان أو القاضى أمرا كتب الى الخليفة فما يلبث أن يأتى الحاكم ، **العزل!**

لقد كان الليث ينهى عن مدح السلاطين وقد تكفل بمنصور ابن عمار حتى لا يقف بباب السلطان ويمدحه رغبة أو رهبة .

ان استمرار مصر فى صناعة الحضارة كان فيه رضى نفسها . فالخلق والابتداع والتفنن هواها وهوايتها منذ القدم .. أما الحكم فلم يكن يهمها منه كما قلت الا العدل فيها والتعفف عن أموالها أو عدم الجشع والسطو . كان الحكم فى نظرها مهما بلغ وظيفة ادارية لا فن فيها حتى لتسميه فى سخرية لا تخفى (الضبط والربط) .

من أجل هذا كله زهد المصريون فى الحكم واعتزوا بالسلطات الحقيقية : السلطة الروحية أو السلطة الأدبية والفنية .

ان السلطان الحقيقى فى عين مصر هو الفنان الذى لا سلطان لأحد عليه ولو كان من أهل الحرف .

ان الواحد من هؤلاء اليدويين (معلم) ،ولمعلمتيه أصول وتقاليد، وله احترام خاص وسمت معين . وحين فتح سليم الأول مصر جمع هؤلاء المهرة والفنانين وحملهم معه الى القسطنطينية. ودلالة هذا بهر الغالب بفن مصر بهرا يسيل لعابه حتى ليعجز عن مقاومته ... ولم يؤثر عن سليم انه أخذ فنانين وصناعا من مكان آخر فى الشرق كله ..

اعتبار آخر ... **ان المصرى حريص على ما يملك** .. يبقى ويصون . الخبز فى مصر دون سائر البلاد (نعمة) و (عيش)

والمصرى لا يرمى لقمة ... واذا وقعت منه على الأرض ينحنى يلتقطها ويرفعها فى محاذاة عينه ثم يقبلها ... المـاء نعمة والأرض نعمة النعم ... والمصرى لا يبهدل النعمة. ولهذا يفكر الف مرة فى (كيفية) رد العدوان عليه ... ان الروسى يحرق الأرض بعد أن ينسحب منها حتى لا ينتفع بها المغير .ولكن المصرى فى الغزوات التى ابتلى بها كلها لم يفكر مرة واحدة فى حرق الأرض ... كيف ؟ انه يعشقها .. لا يهون عليه حرقها ... السلب أهون ولو انه أحلى المرين . انه واثق أنه سيجمع أمره ويستردها ... مآلهـا اليه وحده فلا يشوه نصره المأمول بأضرار المحبوب .

والمصرى لا يقامر ... حين طلبنا وقف القتـال سنة ١٩٦٧ الحزينة كان هم مثقفينا ، القاهرة .. الخوف على كنوز التـاريخ فيها كما أعلن الفرنسيون ، باريس مدينة مفتوحة .

لكل شعب طريقته فى المقاومة وفلسفته .. الشعب المصرى كان ينظر الى الحاكمين نظرة الشاعر فى أعماقه بقيمته وحضارته وتراثه ووراثاته الى البرابرة الذين لا يملكون الا العضلات .فكان همه كله أن يحافظ على ذاتيته .. على قيمته وحضـارته وتراثه ووراثاته باتقاء شرهم أو اعتزالهم لاسيما اذا اتقوا ظلمه ...

كان المصريون يعتبرون بعض الغزوات وفادة همجية دفعتهـا قسوة الطبيعة فى بيئتها الى الوادى الأخضر .. وبهذا تكون مصر اقلمتها مثل الغزوات التى جاءت من الغرب كغـزوة الهكسوس الذين عنتهم مصر بكلمة (المحرومين) ، على الرغم من انتصارهم واستيلائهم على الدلتا . وهى صفة توحى باعتزاز النفس المصرية بذاتها المعنوية والمـادية ... بذاتها الحضـارية حتى ولو غلبت سياسيا ... فغزاة مصر اما « محرومون » يتطلعون الى الرخاء المصرى أو «برابرة همجيون» يطمعـون فى (الملك) المصرى .. ومن هذا المفهوم تنبع لفظـة الهكسوس التى أطلقتهـا مصر على الآريين الذين هاجموها من الشمال الشرقى .

والمصرى دعونا نقولها واضحة وصريحة .. المصرى حكامه لم ينصفوه فالحكم مفسدة للقريب والغريب .. لعل المصرى عند الغزو قال فى نفسه : أيموت دفاعا عن كرسى هؤلاء ؟ من يدرى لعل هذا منبع حكمته التى تقول (ما يموت على السد الا قليل الفلاحة) .

ما دام الشعب المصرى لايغنم من الحكم مغنما حقيقيا فليتصارع على الحكم المتصارعون أيا كانوا، وليعكف هو على عمله الذى يحبه ويحقق ذاته فيه .. ان حكمته واقعية لا نظرية وكم فى أعماق البسطاء من حكم ...

فلسفة الشعب المصرى أن يتقوقع على نفسه النفيسة ويصيغ من دموعه فى محارته أو عزلته ، لؤلؤة .. فنا وصناعة وطرفا.. يتوارث مهارتها خالفا عن سالف ويعتز بمعطياته فى هذا المجال فيجعل كما أشرت لكل (صنعة) حيا ومعلما .

ان الذى أمسك علينا شخصيتنا بعد سنة ١٩٦٧ أننا لم نعتبرها هزيمة أمة .. ولو فعلنا لانسحقنا . ولكننا غسلنا عارها بعد ست سنوات هى فى عمر الأمم لحظة أو بعض ساعة ...

لا كانت سنة ١٩٦٧ ... لقد جرحت الهزيمة حتى البسمات وسنابل القمح ، ورقة الياسمين ... جرحت السنين فى شيخوخة الآباء ، وجرحت نضارة الطفولة فى الأبناء ... جرحت السرور فى القلب والكبرياء .. جرحت الثقة والقدرة والاباء...جرحت الليالى ... ليالى القاهرة فلم تعد عذبة ولم تعد فاتنة ساحرة ... وبكى الفجر فى الحقول حتى بلل الصبر ، وتشابهت الأيام فلم يدر بها العمر ...

ومع هذا لم تعرف مصر **ولم يعرف تاريخها حائط المبكى**. كانت مصر فى الأعوام الستة تلملم جراحها وتجمع نفسها ، وتستوعب خصائصها فى عملية تحضير للعب الدور الجديد الذى بدأ بالعبور.

هذه هى شخصية مصر التى يرمز اليها النيل والهرم ... النيل الذى كان التشريع المصرى ينص على أن النيل اذا بلغ أربعة وعشرين ذراعا أصبح لزاما على كل مصرى من أى طبقة العمل على حماية البلاد من فيضه ... ولعل شعورنا العميق بوجوب التجمع والتوحد عند خطر النيل هو سر الحيوية المصرية التى تستيقظ فجأة عند الخطر حين لاتدل الدلائل على هذه اليقظة قبل وقوعها .

والهرم الثابت فى وقفته ، الراسخ فى هيئته ، الشامخ فى كبرياء وراءه وأمامه جلال الماضى ومواكب التاريخ ومعارك التاريخ ايضا . ولكنه بعد الغزوات والكبوات والانتصارات ظل هو معجزة العلم والفن والحضارة ... معجزة مصر وشخصية مصر .

اين الغزاة ؟

ان مصر لا تموت ..

وان ما نشهده اليوم من ارادة التغيير والعمل والتحرير شاهد لا يخيب على ارادة الحياة **الكامنة** فى النفس المصرية بل التحدى للقهر والألم .. التحدى للصعب والعثرات ... واسلوب مصر الذى لا يتغير فى تخطى المحن هو « **العمل** » .

ان الحضارة المصرية كلها احتفال بالعمل .كانت حياتهم قربانا .. حياتهم نذروها للمجد ... وهنا ندرك معنى قول القائل (الموت فن) فالمنتحر عاجز عن الحياة ... عجز عن تكريس الحياة لهدف ونذرها له حتى تفنى دونه ..

لقد ادركت الحضارة المصرية منذ القدم **بالبصيرة** حكمة تغيب عن كثير من المربين ، وهى أن الانسان لا تستقيم حياته ما لم يكن فى طريقه الى غاية كبيرة ، أو يشارك فى عمل رائع ، أو هدف يثير الانبهار ....

ان الناس يسمون المتفانى فى الذكر « مجذوبا » ثم أطلقوها بعد هذا فى غير موضعها . فكل من سخروا منه سموه مجذوبا ، مع أن المجذوب هو الذى اعطى بلا تردد فى الرجوع ... اختار ...

وقد اختار الانسان المصرى صناعة الحضـــارة ... وصناعة الثقافة ... اختار أن يضع نفسه فى مجال الخلق وأن يجعل من نفسه مرقبا ومنطلقا للتشكيل ... للبناء ... للتشوق ... للرائع والجليل ...

والمصرى الأصيل دائما يعطى نفسه للقيمة فهو عنـــدما يكون غالبا مستقرا يعطى نفسه للفن .. وعندما يكون جريحا مهيضـــا يعطى نفسه للنصر أو الشهادة .

ان شهداء المسيحية فى مصر قد أعطوا انفسهم لمعنى ... وقد ادركوا هذا جيدا وقصدوه.ومن ثم غنوا وهم فى طريقهم الى أعواد المشـــانق ...

والمصرى الآصيل لا يعوقه شىء عن هدفه ... لقـــد كان أبو الهول فى الأصل صخرة ضخمة تعترض طريق المصرى الى الهرم فشكلها تمثالا وأحال العائق الى فن رائع ...

ان فن المشربيات الذى ابتدعه العصر القبطى كان وراءه سبب قلة الخشب فى مصر فأحال المصرى فقر الكم الى غنى الكيف ...

شكلت مصر الخشب وهو قليل عندها ، أروع ما يكون التشكيل فى تمثال ابن البلد ...

لقد نشأت التراجيديا فى الأدب الغربى ولم تنشأفىالأدبالمصرى. ولعل مقدمه نيتشه عن مولد التراجيديا تعلل هذه الظاهرة . فقد تساءل نيتشه لمـــاذا ولد بطل احدى الكائنات الاسطورية ولمـــاذا يعيش ؟ ثم خرج من حيرته بقوله : انه كان يجب(الا يولد). وهذه

العبارة بمثـابة رد على الموت ... على حين ان **مصر لم تعترف بالموت** ... اذن ليس هناك مأساة .

مصر من حبها للحياة تجاهلت الموت بعـدم الذكر أو تحـدته بالارتفاع فوته. .وبسرعة. ان قصة أوزوريس وستالتيكان يمكن انتشكل تراجيديا كبرى، نقلتها مصر الى ساحة المحكمة أو ميدان الصراع. فالحوادثمحاكمة أو نضال ... لم تقف مصر طويلا عند لحظة القتل **لانها تحيا ... لانها لا تعترف بالموت نهاية ...**

المصرى يرتفع بسرعة على حزنه الكبير .... يرتفـع عليـه وهو يحسه فى داخله احساسا عميقا ،بللعله بقدر هذا الاحساس يكون ارتفاعه .... ان البسطاء من المصريين وحـدهم هم الذين أثر عنهم العويل واللطم لأنهم يرون الموت ساحقا يسحقهم وهم أبناء شعب يحب الحياة ، فيعيشون طويلا فىالموقف .

ولكن الانسان المصرى الواثق عندما يحزن يستقطب ألمه فى داخله ، ويستدير هويعيد البناء ... والشواهد كثيرة من تاريخها وعلى هذا لم تعرفه مصر التراجيديا ... حتى المسيحية المصرية ركزت على الأم لا الصلب ... ركزت على الأم بحس بعيد من ايزيس وهاتور ....

الفكر الأوربى يقول أن الافضل الا تكون هنـاك حيـاة ... والفكر المصرى يقول الحيـاة سرمد ولا مـوت ... حتى كتاب الموتى لم يعرف عندهم بهـذا الاسـم وان كان مضمونه طقوسا جنائزية ...

ان المصريين القدماء لم يرفضوا المـوت فحسب بل رفضـوا الشيخوخة أيضا ... ولهذا عنوا فى أهراماتهم بصـالة تجـديد الحياة . وفى معبد هرم زوسر رسم للملك الشيخ وهو يجـرى جاسرا بعد أن علت سنه ، لتجديد نشاطه .

ان التراجيديا عند مصر الفرعونية تتمثل فى ذبح الثور يقدمونه قربانا ثم قال حكيمهم (عملك الطيب أحسن عند الاله من القربان) ...

اننا نلقن تاريخ مصر ولا نقرؤه وبهذا أضعنا المفتاح ... واننا لكى نعيش عصرنا بأحداثه لا بد لنا ، فى عملية البناء ، من رحلة فى النفس ومعاناة حقيقية بحثا عن المفتاح حتى يقوم الجديد على أساس متين من ماضى هذا البلد بما وعى من تجارب ومكابدة وذخائر .

هنا على هذه الارض نضج الانسان والنضج وعى .. والوعى سعى ... **انه تحريك القوى فى كل مجال** ... وهذا بعينه حدث فى مصر ... **وهذا بعينه لابد أن يحدث فى مصر اليوم اذا أردنا الانتفاض والعمل ..**

لقد شكلت مصر فى « العصر العتيق » اى فى الأسرة الاولى والثانية قبل عصر بناة الاهرام ، شكلت مصر ذرات الصوان وشكلت من البللور الصخرى الوانا من الآنية فيها الحس الصافى للشكل . وليست المسألة التشكيل على ذروته ، ولكن « أدراك القيمة » .

هذه هى شخصية مصر الذى بخل بها الفراعنة ، التاريخ ووضعوا بصمتهم عليه ...

شخصية مصر التى هى وعى **بالمقدس ، وارتفاع فوق الأحداث، وطموح حضارى .**

ان الشخصية المصرية بهذا المعنى هى اعلى سد ضد التقهقر والتخلف والتفسخ فى الداخل ،وضد الهجوم والتربص من الخارج .

وان مصر التى كانت رائدة ثلاث مرات فى التاريخ مرة حين

ابتدعت الحضارة ، وأخرى فى المسيحية ، وثالثة فى الاسلام عليها ان تبقى رائدة مرة رابعة وتحمل رسالة قديمةجديدة. والجدة هنا تعنى وجود الرجال القادرين على « التحريك » أو كما يسميهم توينبى : Those who know how الرجال العارفين بمنطق الحدوث أى ما وراء وجود العمل الفنى ...

هذه هى شخصية مصر ... وأنا أعنى كلمة **شخصية** التى يتوسع الكثيرون فى استعمالها مع أن « الشخصية » لفظ كبير جدا فى المفهوم والدلالة حتى ليقول « يونج »، (من أندر ما يمكن أن تجد شخصية) .

الشخصية خلق جديد لا يتكرر ولا يقلد لأنها روح .. لانها عطاء .. لانها سر .

ومع هذا فمن بين أطفالنا ساذج يقول : أنا لى شخصية ! وما درى ان أمته كلها شخصيتها النفيسة قد تاهت وهى الآن تعيش فى محاولة البحث عنها ... أو البحث عن مفتاح ... لاسترجاعها ثم الابقاء عليها ثم تنميتها بمتطلبات العصر الذى نعيشه من خارجه،حين يفرض علينا دورنا الحضارى أن نستقطبه ثم نزيده بفعالية واضافات رائدة .

***

بقيت قضية :

الاقباط والمسلمون . من نحن ؟

الأقبــاط والمسلمون

ان المثقفين من المسلمين والاقباط يعلمون بالدراســة والوعى التاريخى ، أن مصر اعتنقت المسيحية ثم **الاسلام** .

المسيحية جاءت من فلسطين .

والاسلام جاء من الجزيرة العربية .

وبعد تفكير وتمحيص للدين الوافد ولموقفها هى ، اختارت مصر المسيحية بل تبنتها ودافعت عنها **بالرأى والروح** .

ولاعتبارات فصلتها فى كتاب (شخصية مصر) بل فى **هذا الكتاب** دخلت مصر فى الاسلام أفواجا .. ولم يكن غريبا عن طبيعتها ، ولا عن مسيحيتها . ولهذا لم يكن اسلامها مسـايرة أو تسليما ، ولكن كان اسلامها موقفا واستجابة وايجــابا ، فلم تلبث أن تحمست له ، ودافعت عنه **بالرأى والروح** .

وكما نشرت مصر المسيحية وأضافت اليها كما لم يفعل أحد .

نشرت مصر الاسلام ومكنت له كما لم يفعل أحد .

وبما تمثل المسيحية من وقفة مصر وموقفهــا ... من رأيهــا وشخصيتها ، نعتز بالمسيحية مسلمين وأقباطا لاننا مصريون .

وبما يمثل الاسلام من سماحة مصر وتفتحها ... من احساسها **بذاتها حتى لاتخشى الجديد** ، لانها بالتاريخ الطويل تعرف أن لهـا في كل مسرح مكانها ومكانتها ... بهذا ، ولهـذا ، نعتز بالاسلام اقباطا ومسلمين لاننا مصريون ...

وامتدادا لهذا ، حين تمد مصر للعروبة يدا داعية أو مستجيبة لما يخدم هذا من مصالحها ويعزز دورها ويساندها ، لا املاء من فرد ، أو تحقيقا لطموح شخص ، أو اندفاعة مريضـة ، فان العروبة هنا ، بما تمثل من رأى مصر **نفسها** ، نعتز بها أقباطـا ومسلمين لاننا مصريون ...

فلا يخلط كائن بين الدين والجنسـية ، كمـا والى في المـاضى المسلمون(بعض منهم)| الاتراك ، والاقباط (بعض منهم) الانجليز ... **لا عن خيانة** من الطرفين **ولكن عن سطحيةفى التفكير والوطنية** وما منع الاسلام تركيا ، ولا المسيحية انجلترا ، أن تظلم مصر **كلها** باستعمارها ، ثم باستغلالها ، وتعويقها ، وقهرها ....

الدين علاقة خاصة بين الله والانسان .

ولكن الوطن علاقة عامة أخطر أثرا ، لان الله غنى عن صلواتنا تحت جميع الاسماء . ولكن الوطن حياته بحياتنا، وحياتنا بحياته **مقترنة ومطردة علوا وانخفاضا** .

الاديان جاءت بعد الانسان .

ونحن مصريون قبل الاديان والى آخر الزمان .

ليس الاقباط بالمسيحية فلسطينيين بل مصريين اعتنقوا المسيحية .

وليس المسلمون بالاسـلام عربا ، بل مصريين اعتنقوا الاسلام حتى شكا والى عمر بن عبد العزيز من نقص الجزية .... فقـال

الخليفة الذى يعرف مصر جيدا لانها ربته فى ولاية أبيه عبد العزيز ابن مروان (ان الله بعث محمد هاديا ولم يبعثه جابيا) ...

ولا يسىء هذا العرب بل يشرفهم . فلئن نكون مصريين أسلمنا خير من أن نكون أعدادا من العرب فى مصر ... ما الجديد فى هذا بالنسبة اليهم ؟ وما معنى خروجهم بالاسلام من الجزيرة العربية ، وتجاوزهم به الحدود اذن ؟ هل لم يؤمن به أحد ؟ . وما معنى (بعثت الى الناس كافة ؟) وأين عالمية الاسلام اذن ؟ ان لم يكن أهل البلاد المفتوحة أسلموا فهو دين محلى خاص .

والقائلون من الأقباط بأن المسلمين المصريين دخلاء ظنا منهم بسذاجة أن هذا يتيح لهم أن يتفردوا بمجد القدماء أو بشرف الانتساب الى مصر ... لهؤلاء أقول :

هل يشرفهم أن يكون الدخلاء ، كما يقولون ، يشكلون أغلبية والاصلاء هم الاقلية ؟ أما حين يكون المسلمون مصريين مثلهم فان كل فضل للأغلبية أو للأقلية فهو كسب للجميع باعتبارنا كلا واحدا يكمل بعضه بعضا ، أمنا مصر وأبونا النيل . وبينهما يتفاوت الأخوة وقد يختلفون ، ولكن عندهما يلتقون ، واليهما ينتسبون .

وكيف يجوز فى الفهم أن يزيح الفاتحون أهل البلاد ، لاسيما اذا كان أهل البلاد أقدم تاريخا وحضارة ؟

ان جيش الفتح فى قول كان أربعة آلاف ، وفى قول ثمانية آلاف ، وفى قول ثالث بعد الامدادات ١٢ الفا ، ويمتد آخرون بالامدادات الى ٣٠ الفا .

وأهل البلاد فى قول ثمانية ملايين ، وفى قول عشرة ملايين ، وفى قول ١٢ مليونا .

فلو اخذنا بأكثر الاعداد بالنسبة للفاتحين .

وبأقل الاعداد بالنسبة للأصليين .

هل من المعقول أو حتى من اللامعقول المخبول أن ثلاثين الفا ، يضاف اليهم من لحق بهم من قبائلهم ولو كانوا أضعافاً أن يمسحوا بلدا ، **وأى بلد** ، بلدا كمصر ، ويصيروا هم أصحابه أو أغلبيته ؟ حتى اذا تجاوزنا أن الهجرات والقبائل كانت مقترنة بشخص الوالى تخرج بخروجه ، وأن صلاح الدين الايوبى ضيق على بقايا القبائل العربية واضطرها الى هجرة جديدة الى شمال افريقيا ؟ حتى اذا تجاوزنا هذا كله أو أسقطناه ، هل من المعقول أن الآلاف تناسلوا فصاروا ملايين ، وعقم الملايين وصاروا آلافاً أو مليونا أو بضعة ملايين وفقا لآخر احصاء ؟ أى منطق هذا ؟ ولمصلحة من؟

أيهما أكرم لاخوة الوطن .. للأقباط أن نكون دخلاء أم أصلاء ؟ واذا اعتسفنا المنطق نفسه وقلنا ان المسيحيين المصريين فلسطينيون باعتبار موطن المسيحية الاول (بيت لحم) ، أين مصر اذن بين المسيحيين والمسلمين أى بين الفلسطينيين والعرب نتيجة للمنطق العجيب .

ان كل عقيدة دانت بها مصر وكل رأى قالت به ، وكل عمل مارسته جزء من نسيج الشخصية المصرية ، الخطأ منه والصواب اعترفنا أم انكرنا ... اننا بهذا **كله** ، مصريون .

المسيحية دين كتابى دانت به مصر وجعله الاسلام شرطا للايمان به . فلن يكون المسلم مؤمنا حتى يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر . والانجيل كتاب الله ...وعيسى عليه السلام نبى الله .

والاسلام دين كتابى اعتنقته مصر بعد أن أصهر اليها وأعطت رسوله دون غيرها ، الولد ، كما أعطت الولد ، قبلا ، أبا الانبياء ابراهيم .

يجب أن نلقن هــذا الكبــار قبل الصــغار حتى لاتكون **عقــد ولا استعلاء ولا تفاضل ولاتناحر** يتسلل منه الينا مستعمر يعرق ليسود ، أو جاهل بالدين والتاريخ يحسب التعصب تدينــا فيضر بالدرجــة الاولى من يتعصب لهم بمــا يفتح عليهم من ردود فعل أمثاله من الجهلاء فى الطرف الآخر .

هذا فى الداخل ، أما فى الخارج فالتاريخ الحديث يشير بأصــابعه العشرة الى سلاح رهيب من أسلحة الاستعمار . سلاح الوقيعة بين شطرى الأمة الواحدة فعل هــذا الكاتب الانجليزى جــون بورنج John Bouring فى القرن التاسع عشر وشايعه ادوارد وكين Edward wakin فى الستينات من القرن العشرين فى كتابه (أقلية متوحدة) A Lonely Minority او القصة الحديثة لاقباط مصر خاصة فى الفصل السادس عشر ... وان لم يستطع أحــد أن ينكر **التمــاثل بين الأقبــاط والمســلمين** حتى كرومر فى كتابه مصر الحديثــة Modern Egypt لم يستطع الفكاك من هــذه الحقيقة وهى أن **القبطى والمســلم انسان واحــد هو فى النهاية الانسان المصرى** وانى أترجم حرفيا ما قاله فى الفصل السادس والثلاثين من كتابه (القبطى من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، فى فى السلوك واللغة والروح ، مسلم وان لم يدر كيف . فالقبطيات تتشبه بالمسلمات والأطفال تكيفوا عامة وعادات الزواج والجنائز تشــبه ما عند المســلمين). وان كــان يعــزو هــــذا فى خبث المستعمر ودهاء الخبيث الى تأثر الاقلية بالأغلبية مستمدا الشواهد من الهند بين المسلمين والهندوس . ولا أدل على تعصــبه هو من مهاجمته فى أكثر من موضع ، مواطنه ادوارد وليم لين لاعتــداله فى كتابه عن المصريين المحدثين)
The Manners and Customs of Modern Egyptians.

والأقباط الذين يتعلل بهم كرومر ويتذرع بهم استعمار دولته قال عنه أحد أعلامهم وهو الأستاذ سلامة موسى فى كتابه (تربية سلامة

موسى) ، (انه كان طاغيــة عاث وعربد فى كياننا الاقتصــادى والسياسى وعطل بلادنا عن التطــور وانه كان جاهــلا يتشــدق بعبارات لاتينيــة أو اغريقية قديمــة ولا يعرف شــيئا من العلوم العصرية الجديدة) .

وقد فصل هذا بالأرقام والاحصاءات الاستاذ رشدى صــالح فى كتابه (كرومر فى مصر) .

ويبدو أن خلفه جورست لم يكن أقل سوءا منه .فيروى الأستاذ سلامة موسى انه ابان الانبعــاث الوطنى فى الأمة المصرية عمد جورست الى (مناورة استعمارية هى ايجاد الخلاف والشقاق بين المسلمين والأقباط ، فكان الموظفون الانجليز يحرضون الاقباط من ناحية على المسلمين ثم يعودون فيحرضون المســلمين من ناحية أخرى على الأقباط) .

ولم يقصر كتشنر فى هذا المضمار

انه الاستعمار دائما وراء الفتن .. فهو فى مصر يستهدف الوحدة الوطنية وهو فى الهند يعمق عن عمد الصراع الدينى بين المسلمين والهندوس كما يقول الدكتور جمــال حمدان فى كتــابه (العــالم الاسلامى المعاصر) مثلما عمق الخلاف بين سنية الشمال وشيعة الجنوب فى العراق تفتيتا وتمزيقا للوحدة الوطنية فى الرافــدين بل حاول الأستعمار القول بشيعية ايران قبل اسلاميتها تدميرا للوحدة الدينية بعد الوطنية .

واذا كانت المشكلة الطائفية تبدو قديمة فى العالم العربى ، فانها كما يقول الدكتور حمدان (لم تنفصل فى أى مرحلة من مراحلها عن الاستعمار : هو الذى غذاها ان لم يكن خلقها ، وهو الذى اتخذ منهــا أداة ســياسية يدعم بهــا وجــوده . وهل ننسى ، أن الصليبية — حتى الصليبية — تــذرعت بحمــاية الشيعة من

السنيين (كذا !) ، فضلا بطبيعة الحـال عن زعمهـا حمـاية المسيحيين من اضطهاد السلاجقة فى الأراضى المقدسة ؟)

انى أقرأ الآن فى (الاستاذ) ـــ الجزء الرابع من السنة الأولى قول السيد عبد الله النديم (حتى فى الحروب الصليبية التى تحرك لها عالم أوربا برمته وامتد قرنين وكان لمصر فيها الشـأن الاكبر واليد القوية ولم يسمع ان مسلما تعدى على قبطى مع اشتعال نيران الحروب . ولقد امتـد ذلك حتى فى زمن الحركة الأخيرة ـــ يقصد الثورة العرابية ـــ التى كانت مظنة لحدوث فتنة بين المسلمين والاقباط فانه لم يسمع بتعـدى احـد الفريقين على الآخر وعلى الخصوص فى بلاد الصعيد التى يسكنها معظم الأقباط . وهذا كله دليل على أن التسوية بين المحكومين تكون الجامعة الوطنية).

ويقول خطيب الثورة العرابية فى موضع آخر :

(ومع كون الأقباط عاشوا دهرا طويلا وهم أصـحاب مشيئة واحـدة يأتمرون بأمر رئيسهم الـدينى وينتهون بنهيه فانهم لم يجتمعوا يوما لتفريق عصا الجـامعة ولا لشـق ثوب الائتـلاف ولا تنافروا مع المسلمين بسبب من الاسباب دينيا أو دنيويا ولامالوا للخروج من ظل عـدل الحكومة المصرية الى حرارة غيرها لعـدم الموجب) .

وقول عبد الله النديم يعود بنا الى الأمس البعيد والقريب . ففى سنة ١٨٧٤ عندما شرعت نظارة الحقانية فى التحضير للمحـاكم المختلطة انضم بطرس غالى باشا الى محمد قدرى باشا فى ترجمة قوانين هذه المحـاكم الى اللغة العربيـة وتعريب التشريع الذى ما زالت مصر تأخذ به الى اليوم ...

ان مصر بلـدنا معا .

لقد انشأ بطرس غالى باشا الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨١

فخطب فى حفل الافتتاح الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله النديم .

واقال الخديوى عباس الشيخ سليم البشرى من مشيخة الأزهر فخف اليه بطرس غالى باشا يعرض مساندته ويقف الى جانبه .

لقد مات بطرس غالى باشا مقتولابرصاص ناصف الوردانى ، كما مات من بعده أحمد ماهر مقتولا برصاص محمود العيسوى والقاتل والقتيل فى الحالين كانا يعملان لمصر من وجهتى نظر مختلفتين .

ودافع محمد حسين هيكل عن بطرس غالى فى كتابه (تراجم مصرية وغربية) دفاعا جاوز حد الانصاف الىالتعاطف.ولميتخل عن موقفه هذا حتى فى حديثه عن (اتفاقية السودان) التى وقعها بطرس غالى سنة ١٨٩٩ والتى حاول خصومه تحريف واقعها ضده فى شبه اجماع على تحميله وحده وزرها الذى صنعته بعد هذا أحداث عدة وملابسات وأوضاع تلت توقيعها .

لم تعرف مصر التفرقة الدينية ... لقد خدعها الاستعمار يوما عن حقيقة قدرتها فأوهمها انها بلد زراعى ليصرفها عن الصناعة ويستبقيها سوقا لمنتجاته ولكنه لم يستطع أن يخدعها عن حقيقة قيمها فانهزم فى كل مرة حاول فيها الوقيعة بين أبنائها مسيحيين ومسلمين فاتحدت ثورتهم ضده بعد الاحتلال وسنة ١٩١٩ وسائر الثورات الشعبية . وظل الأقباط أبدا كما يقول الدكتور جمال حمدان (كتلة رصيفة رصينة من صميم جسم الأمة) .

ان الاسلام حضارته اسلامية نسجتهاوأسهمت فيها البلاد المفتوحة خاصة فارس ومصر بسابقة الحضارة فيهما ... والاسلام ينكر العصبيات ويؤيد هذا الأستاذ صبحى وحيدة،وهو مصرى مسيحى فى كتابه (أصول المسألة المصرية) .

كما يؤيد هذا اختيار الاسلام عواصمه الحضارية فى دمشق وبغداد والقاهرة .

لقد ناصبت مصر ، الرومان ، العداء حين حاولوا التدخل فى عقيدتها المسيحية أيام وثنيتهم فقاتلتهم . وحين دانوا بالمسيحية وحاولوا التدخل فى الطقوس والعبادات قاومتهم. وتمسكت برأيها فى هذا وأسلوبها فيه، بل جنحت الى العناد فخالفتهم فى الرأى لمجرد المخالفة ، خالفتهم لونا من المقاومة واعلان السخط والكراهية ، لونا من التحدى واثبات الوجود. وكان لمصر كنيستها الخاصة بها وبطريركها المنتمى اليها . مصّرت مصر المسيحية (واستخرجت منها نسختها الخاصة : القبطية) .

هذا حين لم يصدم العرب ابان الفتح ، مصر ، فى عقائدها وتقاليدها فعاد الرهبان من صوامعهم فى الصحراء الى مزاولة وظائفهم الدينية السابقة، كما لم يتدخل العرب فى أسلوب الحياة اليومية بعاداتها وتقاليدها المميزة فبقيت كما هى الى يومنا هذا فى الميلاد والأعياد والوفاة نمارسها الى اليوم مسلمين ومسيحيين. فليلة الحناء والصباحية والنقوط والسبوع وكعك العيد المنقوش وكأنه قرص الشمس الذى اتخذه أخناتون شعارا ... كلها عادات مصرية قديمة .

ان مصر تهتم بالجوهر لا بالتفاصيل .. ونحن المصريين اليوم نتبادل زيارة الأولياء والقديسين دون شعور بالتفرقة أو التعصب ... كلها فى نظرنا مزارات .

بل اننا كنا فى القرون الأولى من الفتح نتبادل (قناديل) الكنائس وجامع عمرو عند الاحتفالات الدينية .

وهناك أعياد تجمعنا معا أمة واحدة كما كنا قبل الأديان فعيد الربيع ووفاء النيل وليلة النقطة ... كل هذه أعياد مصرية قديمة صاحبتنا مع الزمن وصاحبناها الى يومنا هذا .

ان جوهر الدين فى مصر ، فى كل عصورها ، واحد . فالوثنية المصرية القديمة فى جوهرها الأصلى ادراك للخالد خلال العابر وقد وصل الخاصة عندهم الى التجريد والى فكرة الاله الواحد ..

وعلى الديانة المصرية القديمة قامت اليهودية فالمسيحية اللتان تأثر بهما الاسلام وأقرهما ... وان مصر حين دانت بالمسيحية فانما دانت بها لانهـا تعبر عن ضميرها بل ان الديانة المصرية القديمة فى آخر عهدها أوشكت أن تكون مسيحية قبل المسيح بما نزعت اليه من رغبة الخلاص والتماسه داخل النفس حين يئست من العالم الخارجى وآضت الى الصحراء ، وآوت الى العزلة للتأمل والتبتل . فمصر فى عهدها القديم عرفت النسك كما سنت الرهبانية فى المسيحية وعنهـا انتقلت الى أوربا أجل منحة أهدتها المسيحية المصرية الى المسيحية الأوربية بل برجحون أن تكون طبيعة مصر هى التى أوحت الى اليهود بعبادة التنسك فالصحراء فى مصر شديدة القرب من أى شخص بريد اعتزال العالم .

واذ تأصل فى مصر هذا الطابع لعبت دورا كبيرا فى التصوف الاسلامى شهد به ماسينيون وبركلمان حين أطلقا على (ذى النون) واضع الحجر الأساسى فى صرح التصوف التيوزوفى الاسلامى .

وتؤيد هذه المصادر الاسلامية ومن بينهـا الرسالة للقشيرى والطبقات للشعرانى والكواكب الدرية للمناوى وحلية الأولياء لابى نعيم الأصبهانى واللمع للسراج الطوسى وكشف الحجب للهجويرى وكذلك الرازى والترمذى ... جميعهم اتفقوا على أنه وحيد دهره علما وعبادة ومعرفة وأدبا .

وكان ذو النون كثير الملازمة لبربا اخميم وهى بيت من بيوت الحكمة القديمة . وهنا يلمح الأستاذ الخولى الوراثات المصرية فى حياة ذى النون وأسلوب تفكيره .

لقد جاء الاسلام ولم يكن جديدا على مصر كل الجدة فمضامينه ومفهوماته وقيمه نفذت مصراليها بصورة ما بالفطرة السليمة والدفع الحضارى معا ... ان الجنة والنار والثواب والعقاب والبعث مفاهيم مصرية قديمة ، بل أن بعض الباحثين يرجع المعبودات الوثنية العربية فى أصلها الى معبودات مصرية ... أليست عقيدة البعث وراء فن العمارة المصرية بما خلدته من أهرامات ومعابد بما عليها من نقوش وتلوين وما ضمته من تماثيل ... أليست عقيدة البعث وراء علم التحنيط المصرى ؟

يقول الأستاذ عبد الحليم الجندى فى كتابه (الامام الشافعى) ان قدماء المصريين (هم أول من فحص أحكام البيع والشراء واوجبوا الكتابة أو الاقرار لاثبات ما ينشأ عن العقد المكتوب ، وحرموا زيادة الفوائد على ثلث رأس المال فى السنة وعن أصل الدين مهما طال الأجل ، وحرموا الربح المركب ، ومنعوا استرقاق المدين للوفاء بدينه ... بل أن ما فى الألواح الاثنى عشر ذاتها ، من قانون طبيعى كان تقليدا لمصر) .

ومن الطريف ان مصر قبل الاسلام حرمت لحم الخنزير منذ اتخذ (سيت) هيئة خنزير وفقأ عين (حورس) فحرمت الديانة المصرية اكل لحم الخنزير .

وكان المصريون القدماء يعنون بفحص طهارة الذبائح ومطابقتها لمقتضيات الطقوس الدينية .

والطهارة فى مصر القديمة كما جاء فى كتاب (الحضارة الطبية فى مصر القديمة) « أمر ليس بالغريب خاصة وانه نابع عقائديا » ويقول هذا الكتاب ان (النظافة كانت عندهم عقيدة قبل أن تكون سبيلا للصحة القومية) ...

يقول د. أ .ل. كويلاند : (بلغ المصريون شأوا من الانسانية

السمحة لايرقى اليه الشك ، واذا نحن قسنا المصريين بمقاييس عصرهم الفيناهم أقل قسوة من غيرهم ثم هم كانوا مشغوفين بالنظافة) .

وهكذا كان الاسلام كالمسيحية فيه الكثير من مألوف مصر . لقد وجد الاسلام فى مصر جوا مهيأ ... ولأمر ما **تأصل** الاسلام فى مصر تأصيلا لم يبلغه فى مكان آخر حتى ان مصر هى التى دافعت عنه فى مواقعه الكبرى وقامت له فيها أقدم وأكبر جامعة اسلامية.

التقوى الحقيقية عند مصر هى **الحب** ... حب الله وحب المعنى .. وحب الانسان .. وحب الحيوان ... وحب الأشياء .

ان التعاطف مع الانسان والحيوان والاشياء المبثوثة صورة ورسومه فى لوحاتهم رمزا للطيبة والودادة التى تصادق كل شىء ، رمز ايمانهم بوحدة الوجود قبل الفلاسفة والمتصوفة وأصحاب النظريات لا باعتبارها عرفا واصطلاحا ، بل باعتبارها كما يقول الأستاذ حامد سعيد ، موقفا تجاه الحياة تتحقق فيه قيم ومشاعر الرواقية والمسيحية والصوفية والبطولات النفسية دون أن تكون واحدة من هؤلاء بالذات) .

التقوى الحقيقية عند مصر تتمثل فى .. **الفن** . حين جسمت عقائدها فى الروح والبعث والخلود أهرامات ومعابد ونقوشا وهكذا كان الفن عند مصر مدخلا الى الدين حين يفهم عباد النصوص من للدين معنى الخوف من العقاب والرهبة من الحساب والفزع من النار ... وقمة التمسك بالدين فى رأيهم هو التعصب له !!

وفى الفن المصرى تعانق الاسلام والمسيحية لانهما معا ينبعان من الفن المصرى القديم . وفى مكتبة جوثا كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق فى كتابه ((**الفن المصرى الاسلامى**)) « فى مدينة ميونيخ رق يتضمن صفحة من القرآن بها زخارف بسيطة واشرطة

تفصل بين السور بعضها وبعض تتضمن زخارف هندسية متأثرة بالفن القبطى الى حد بعيد . »

ان جلود الكتب فى العصر الاسلامى انما يحدد تاريخها الكتابة القبطية الموجودة على أوراق البردى المستعملة فيها .

وليس البردى وحده أو زخرفة الكتب ، بل أن التقاليد القبطية فى زخرفة الخشب استمرت سائدة بعد الفتح العربى .. ويضم المتحف الاسلامى الكثير مما يجمع بين الزخارف القبطية والكتابة العربية .

بذا يشهد المسلمون... وبروعة الزخرفة الاسلامية يشهد المسيحيون ، فالأستاذ بشر فارس فى كتابه القيم (سر الزخرفة الاسلامية) يقول (ماحسبك تلقى ملة كبيرة تحضرت فأنست باللطيف والدقيق من العمران ، تسلم سكناتها لأسرار دينها ، وتوثق اشاراتها بأحكام مفروضة ، فوق ما أسلمت الملة الاسلامية وأوثقت) .

ومضى يفسر الزخرفة الاسلامية مستلهما روح الاسلام بما يشهد بتفوقه فيه كبار الفنانين المسلمين .

لقد استعان العرب بقبط مصر ، خارجها أيضا فاستعان بهم الوليد فى بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى وقصر أمير المؤمنين ، ويضيف « البلاذرى » فى فتوح البلدان مسجد المدينة فيما أعانوا عليه . وكأن الوليد يترسم خطا أسلافه الذين استعانوا بأقباط مصر فى اعادة بناء الكعبة قبل الاسلام .. وكأن مصر منذ بنى ابراهيم واسماعيل بن « هاجر » المصرية ، الكعبة آلت على نفسها أن يكون البناء على يديها فعادت الى بناء الكعبة أيام الظاهر بيبرس ، وفى العهد العثمانى ، وفى عهد محمد على .

ان أقباط مصر هم الذين بنوا أول محراب مجوف فى الاســـلام على مثال من حنية الكنيسة كما تأثر بفن مصر المسيحية فى الزخرفة والبناء قصر المشتى فى شرق الأردن الــذى يلمح الــدير الابيض والدير الأحمر بسوهاج . ومن عطــاء مصر للفن الاسلامى بعـد المحراب : المئذنة والقباب . جاء فى كتاب فن مصر خلال العصور :

(ان فنار الاسكندرية الذى بهر الغرب عند فتح مصر ، هو الأصل الفنى للمئذنة).

أن السموق الذى يزهو به النخيل المصرى ، يتمثــل فى عمود المعبد والكنيسة ومئذنة المسجد معا وكأنه شوق الى أعلى وتوق الى فوق .

* * *

لقد نهض المصريون أقباطا ومسلمين فى العصر الفاطمى ــ وهو العصر الذى يعتبره المؤرخون نقطةتحول فى تاريخ مصر من الناحية الدينية ــ بالفن الاسلامى المصرى نهضة فيها من احســـاس مصر ووجدانها وذوقها الحضارى ما أضفى على فن مصر الاســـلامية طابعا مميزا وشخصية فذة حتى أن بعض آثاره كمشـــهد الامام الشافعى يعد كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق منعدم النظير فى مصر بل وفى العالم الاسلامى أجمع .

ومن هذا المستوى مدرسة السلطان حسن التى أشـــاد بهـــا الرحالة من شرقيين وغربيين وفى مقدمتهم المقريزى .

يقول الأستاذ محمد شفيق غربال فى كتـــابه (تكوين مصر) ، (ان طرائق الفن القبطى وأساليبه كانت عاملا من العوامل المؤثرة فى فنون مصر الاسلامية وصناعاتها وهـــذا دليل آخر على أهمية العنصر المسيحى فى تكوين مصر) .

لقد تعانق الاســـلام والمســـيحية حتى فى علوم اللغة والدين.

فعن (ورش) المصرى القبطى الذائع الشـــهرة فى علم القراءات أخذ علمـــاء المغرب عن تلميذه (أبى يعقوب) الأزرق بن عمر بن يسار المصرى .

ومن رجال مصر من الأقباط الذين أسهموا فى التـــأليف فى علوم العربية وآدابها :

سعيد بن بطريق ، وبنو العسـال وجرجس بن العميد المعروف بابن المكين صاحب كتاب (تاريخ المسلمين) والمفضـــل بن أبى الفضائل صاحب (نهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) .

وبطرس أبو شاكر ويعرف بابن الراهب .

وابن كبر وهو شمس الرياسة أبو البركات .

وأسعد بن مماتى الشاعر الأديب صـــاحب الحظوة فى الدولة الأيوبية .

ان مصر لم تعرف الفتن الأهلية الدموية كالتى وقعت فى انجلترا فى عهد تشارلس الأول وانتهت بقتله ، والتى وقعت فى فرنسا فى عهد لويس السادس عشر ولم تنته بقتله فقط بل اشتدظمؤها للدماء فاستباحت الثورة عليه ، القتل ، حتى أتت على أصحابها أنفسهم . وما تخلل هذا كله من مآس فصلها الأستاذ عبد الله عنان فى كتابه (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) .

لم تعرف مصر الحروب التى دارت بين المدن اليونانية . ولم تعرف مصر محاكم التفتيش أو ديوان التحقيق وما وقع فى أســـبانيا من الأحداث الدامية بسبب التعصب الدينى من أناس يدينـــون بدين الرحمة والمحبة والخير .

ان من يقرأ محاكمة الليدى جان جراى ملكة انجلترا يتبين أن الدافع القوى على اعدامها هو كونها بروتستينية حين كانت الملكة مارى تيودور التى حاكمتها كاثوليكية !! . أما التعـلات الأخرى فمارى تعلم جيدا أن جان جراى ذات السبعة عشر ربيعا لا يد لها فيها ولا مطمع لها ، كان ، فى العرش .

لقد عرفت مصر حياة التدين ، ولكنها لم تعرف التعصب فى الدين أو الضغن بسببه فسلم الدين فيها كما يقول الأستاذ العقاد — فى كتابه عن (سعد زغلول) — (من لوثة العصبية العمياء وقسوة الهمجية الرعناء وسلم تاريخ مصر كله من المذابح الطائفية الا أن يتسلل اليهـا من طائفة غريبة أو نحله دخيلة) .

حدث فى القرن السابع الهجرى أن كثرت الفرق والنحل واشتد الخلاف بينها فاتفق رأى العلماء على العـالم المصرى الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة .

واذا لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصريا فقط فى هذا الشاهد فانا لنجد كما يقول الأستاذ الخولى (هذا الميل المصرى للتوفيق بل الدعوة اليه يتجه اليها صوفى مصرى بلدى السبكى هو الشعرانى، وهو أصيل فى الفقه فضلا عن كونه صوفيا من الطراز الأول . وتدحاول التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولته التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال . ويقول الباحثون الغربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا ..) .

لم تعرف مصر التفرقة حتى فى الخصـومة ... لقد كان جيش سيتى الأول يتكون من ثلاث فرق .. فرقة (آمون) وفرقة (بتاح) وفرقة (رع) فلما جاء رمسيس الثانى أضاف اليها فرقة (ست) . وفى هذه الاضافة دلالة بعيدة المدى (فست) هو الذى قتل أخاه اوزوريس) معبود مصر والذى يرمز الى النيل والخير والخصب ولكن

عند الخطر تذوب الخصومات ، ويشترك (ست) في الـدفاع عن الوادى بل أكثر من هذا هناك على جدران المعـابد صـور تجمع بين ايزيس نفسها وبين ست يرفعان معا شيئا واحدا . !!

يقول الأستاذ العقاد (ينقض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية .. فمن الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسيحيين سواء في تكوين السلالة القومية ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء في الاصالة والقدم عند الانتساب الى هذه البلاد) .

ويقول الـدكتور سـليمان حزين في بحثـه عن (سكان مصر ودراسة تاريخهم الجنسى أن الطـابع الجنسى العـام للمصريين قد وحدا واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون .

رحم الله الشاعر ولى الدين يكن حين قال :

ابنى المسيح واحمد انتبهوا	ودعوا رجالا منكم هجعـوا
أرواحكم من بعضـها قطع	وجسومكم من بعضها بضع
لاتحسبن خـلافكم ورعـا	ان ائتـلافكم هـو الـورع

***

وبعـد المفـاهيم الثابتـة نأتى الى مفاهيم بل قيـم شريفة في حياتنا ولكننا أخطأنا فهمها ، فأخطأنا بدوره ما فيهـا من اضـافة وثراء ....

أول هذه القيم الرفيعة : الدين .

الـــدين

الدين أى عمارة الداخل ولا اقصـد بالدين حرفية النصـوص والطقوس فالدين ليس تسليما ذهنيا انما الدين بيدن الحياه .... أسلوب حياة .. موقف ديني يفسره أسلوب السلوك .

الدين كما يقول برتراند رسـل وهو فى نظر الكثيرين ، خارج على الدين ، كلمة لها معانى كثيرة وتاريخ طويل .. ومن النـاس متدينون دون أن يكون فى طبيعتهم أى شىء يستحق أن يسمى دينا فهم خليو البال من التاريخ أو الخبرة الانسانية التى تجعل للطقوس منهم قيمـة .

ان الناس يصدرون فى أعمالهم عن أصـول ثلاثة متقاربة وأن كانت متميزة : الغريزة ، العقل ، الروح .

وحياة الروح بين الثلاثة هى التى تصنع الدين .

وما يتبع حياة الروح ، الاحترام والعبـادة والامتنـان للبشرية والدينونة لها ... وأعمق من هذا يستكن الاحساس بسر لا نعلم غير شطر منه .. سر حكمة مبهمة ومجدخاف لرؤيةمتغيرة الصورة تفقد فيها الأشياء اهميتها الثابتة حتى لتصبح قناعا رقيقا نرى خلفه الحقيقة القصوى لهذا العالم ... فمصدر الدين أمثال هذه المشاعر التى لو قدر لها أن تتـلاشى ، لتلاشى من الحياة خير ما فيها ...

لقد قاست الروح من الجمع بينهـا وبين الـدين التقليـدى ومن عداوتها لانكار الذات أى السلبية التى يتهم بها الجـاهل ، المسيحية : لأن الروح تقدس الذات وترفعها وتعيد بناءها .

حياة الروح يقينية بقدر ما هى قادرة على اغناء الوجود الفردى ... انها تمنح **بهجة الرؤية** .

ان سمة القداسة الفرح .

البشر ايناس .. شعاع من الرحمة .. عطـاء من الحب .. خصب حتى ليقول الشاعر البسيط :

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى

ولكنما وجه الكريم خصيب

ولأمر ما سميت الانسانية ، بشرية

والى البشر نسب الله نجاح الدعوة الاسلامية (ولو كنت فظـا غليظ القلب لانفضوا من حولك) .

ولهذا كان اقصى وأقسى عتاب للرسـول الكريم الآية (عبس وتولى) .

هل جربنا مرة أن نرسم قرن الخروف مثلا ؟ وأن نرسم المحارة؟ وهل لاحظنا الشبه بينهمـا ؟ انالجزء الأعلى من المحـارة يشبه القرن ولكن الفرق ان القرن فى حركته المنحنية يعتصر نفسه من العذاب ثم لا يزيد فظل جزءا من حيوان . حين تجتـاز المحـارة مرحلة العذاب الـ twisting هذه وتنفتح على البحر ... البحر الكبير الواسع فاحتوت أغلى ما فيه ... اللؤلؤ ... وصارت هى وما تحتويه متعة وزينة وثراء كبير ...

فليس من الدين اذن الكآبة أو الدروشة ، والمخرقة ، والعجز . والحرمان .

ان الروح تحرر أولئك الذين يثابرون عليها من سجن العاطفة الشخصية التى تعكف على الاهتمامات الدنيا .

هذه الرؤية تمنح الحرية والجمال والحب لأفكار الانسان ولعلاقته مع الآخرين .

انها تهيىء الحلول بشروقها
انها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة
وترد الشارد الى مكانه من حياة الانسان

ان السعادة والسلام لا يمكن أن يعودا الى هذه الدنيا الا عن طريق الروح .

لقد كان « نيتشه » غريزة قوية وعقلا جبارا . ولكنه افتقد لمسة الروح،فقضى سنيه العشرة الأخيرة فىمستشفى الامراض العصبية .

ان مشكلة فلسطين لا تحتاج الى ذكاء يدرك عدالتها ومع هذا هي مشغلة الأذكياء من أقطاب العصر لانهم أذكياء العقل لا القلب والروح .

يتساءل « اقبال » هل الدين أمر ممكن ؟

فى رأيه أن الدين تجربة ... سعى صادق صحيح يمحص مستوى الانسان . انه تجربة ، كالعلم سواء بسواء ، فى محاولة كشف الذات بوصفها فردا أعمق من نفس الفرد العادى القابلة للوصفة التصورى .

واذا نظرنا فى كتاب The View of Life الذى ألفه رادها كريشنا والرجل من أصحاب النظرة البانورامية الى الثقافة البشرية، وجدناه يعرف الدين بأنه أمر داخلى وشخصى يوجد رابطا كل القيم

ومنظما عضويا لكل الخبرات .. انه استجابة (كل) الانسان (لكل) الحقيقة .

فليس الدين الرؤية الخلقية فحسب .

وليس الدين الرؤية الصوفية فحسب .

وليس الدين شكلا من أشكال المعرفة كما يقول هيجل ، والدين ليس مجرد ظاهرة اجتماعية .

عرف وايتهد وهو أستاذ برتراند رسل ، الدين ، بأنه أمر توحدى فاذا لم تتوحد على الاطلاق فلست متدينا على الاطلاق . فالدين هو وعى الانسان بفرديته .. بقيمته الانسانية الشخصية ...

هذه نظرة الهند الى الدين .

أما الصين فتقول **بالتاو** .

والتاو عند الصين يستحضر فى الضمير ويتوحد معه . وهو صفاء ونقاء ينبع عنه الانسان الطيب الفاضل .

وكما تتطلب التجربة العلمية التجرد من العواطف الشخصية لتحقيق الموضوعية ، فان التجربة الدينية تتطلب صفاء النفس لتحقيق الرؤية البعيدة التى تتكشف الحقيقة .

يقول لاوزا (٤٠٠ سنة ق.م) حكيم الصين و (لكل قوم هاد) :

(قبل أن تخلق السماء والأرض ، كان شيئا بلا صورة ولكنه كامل .. صامت .. خلاء .. لذاته كفاء .. لا يتغير ..قادر على التحرك فى كل اتجاه ولا ينفد .

انه أم أو أصل لكل ما تحت السماء أو على الأرض .

نحن لا نعرف كيف نصفه .

كيف نسميه على وجه التحقيق .

ولكى نكتب عنه نسميه (التاو) .

واذا كان لابد من وصـــفه فنقول الأكبر والاسمى يغـــذى كل الأشياء ولا يتعالى .

غنى عن الجميع .

ولـــا كانت كل الأشياء له بلا ادعـــاء فهو الاكبر لا يستـــدعى وتأتى اليه الأشياء تلقائيا) .

وحكمة الصين حكمة بلد الخزف الذى أخذ اسمها فى كل مكان وبلد «صينى» . حكمة قوامها المـــاء والاناء ... الاناء الذى تقول عنه الصين انه (لولا الفضـــاء من الهواء داخله لمـــا انتفـــع به الانسان) اشارة الى التجرد من الأهواء الشخصية .

أما المـــاء فيتمثل حبها له فى لمسة الريشة للحرير .

ولمسة الخزاف للاناء .

ومن حبها المـــاء تنحدر حكمتها مترقرقة تقول (كن كالمـــاء تنزل من السماء لتستقر فى منخفض بئر أو مجرى ماء) فى محاولة للحث على التواضع .

هل خرجت هذه النظريات كلها والأقوال جميعها فى مضمونهـــا عن معنى الخير ؟

ليست المسيحية يوم الأحد ولا الاسلام يوم الجمعة ... الدين قيمة يحققها المتدين فى حياته ... يظلم المسيحية من ينسب اليها ذلك الذى ألقى قنبلة على هيروشـــيما . وهنـــا نفهم سر تفريق

الغزالى بقلبه الرهيف بين العلم بالقيمة قبل الاتصاف وبعد الاتصاف اى عن معاناة ذاتية وخبرة داخلية وهو يقصد الاتصاف بالصدق .

اننا نهوى أن نتكلم عن الاديان فى قضاياها العقلانية .. مثلا : واحد أم ثلاثة اقانيم ! لندع هذا فان عز المسيحيــة فى موعظــة الجبل . هلا قرانا الى جانب القرآن الكريم ، انجيل متى خاصــة الاصحاح الخامس والسادس ...

ان التدين الخارجى .. تدين الطقــوس كالثقافــة الآن ... حلية ... مكتبة . لكن ماذا دخل من هذه المكتبة فى كيان صاحبهــا والى اى مدى وصل به الى ذرى القيمة .. الى الأفــق الاسنى والأسمى .

احتاج أحد الصحابة عملية كى مؤلمــة فى موضــع من جسمه وكان يتهيبها . فأشار أحدهم متهللا كمن وجد الحل ، بأن يتم الكى وهو ساجد يصلى حتى لا يشعر به .

قد تكون القصة رمزية كما أرجح ، ولكن تبقى دلالتها وهى الاستغراق .

ليس من الصلاة اذن الجهر والصياح والتظاهر بالتقــوى رئاء الناس واشتهاء المدح .

كان الحكيم المصرى امينوموبى يقول :

(صل من قلب مبتهج تظل فيه كل الكلمات مختفية فهو يصنــع ما أنت فى حاجة اليه) .

الصلاة صلة ... خلوص .. خشوع .. استغراق كامل .. كم من المصلين الآن يقفون على عتبة هذا الاستغراق ؟

والوضوء هو تحضير النفس للوقوف بين يدى الله ... وهــو ابعد من النظافة الظاهرة على قيمتها ... انه تطهير للحــواس كلها مما تكون قد أتته من مشاهدة الباطل ، أو قول الزور ، أو

مس المحرم ... انه غسل للنفس كلها قبل الوجه أو اليدين الى المرفقين .

ان قيمة محمـــد ليس فى انه كان ناجحـا بالميزان الأمريكى أى تاجرا كاسبا ، ومتزوجا من سيدة ثرية (ســقع) ومحبـوبا فى مجتمعه ، ولكن قيمته انه بعد هذا اختار المطلب الشاق .. البحث عن الحقيقة ... فتعبد فى غار حراء .. عزلة للتصفية والرؤية .. سياحة فى داخل النفس ...

ان خلوده الى غار حراء من أجل الحقيقة يعلمنا اهمية العزلة الى جانب اهمية الاتيكيت فى المجتمع .. لعلنا ان لم نصـل الى الحقيقة فلا اقل من أن نشارفها .

الحقيقة رؤية عندما يتطلع اليها الانســان يعطى عطاءه ... فالفنان يبدع الرائعــة الفنيــة ، والفيلســوف يضـع النظـام الفلسفى ، والعــالم يضـع النظـرية ، والحقيقـة ذاتهـا من الكثرة والوفرة بحيث تعــير الفلســفة والعـلم والفن والقصـة والمسرحية وسائر الالوان ثم يتبقى منها غزير لا يدركه الادراك .

وهنا ندرك قول اينشتين بأهمية الخيال .. فالخيال شـوق الى الحقيقة . وبالطبع اقصد خيال الرؤى لا خيال التوهمات .

وقــد انتشر الاســلام بالخيال الذى هــو ايقــاظ النفس الى الحقيقة .. الى الجوهر ...

(أينما تولوا فثم وجه الله) .

فرؤية القرآن لله ، رؤية محيطه . ان القــرآن الكريم حافـل بالصور ولكنها ليست للتصوير الحسى ... انها رؤى ممتدة . يقول الله تعالى : (كلمة طيبة كشجرة طيبة) كيف تصور هــذه الآيـــة ؟

وقبل العلوم والفنون كان حوار رائع بين الانسان والحقيقة.. تتغير وسائل البحث ويكون بينها ما بين منطق العلم .. والخرافة. ولكنها كلها تسعى الى الحقيقة بأسلوبها .

والاسلام رؤية جديدة للحقيقة ، فحين تستحضر المسيحية ملكوت الله فى القلب البشرى ، يستحضر الاسلام ملكوت الله فى داخل النفس وخارجها وما وراء المحسوس . وحين تمثل الفن الاسلامى هذا المعنى خرج خلاصة مقطرة للحيوية وللحياة .

ان التوحيد ليس شهادة ببغاوية كمايفعل كثير من المسلمين . ولكن التوحيد ذروة من الادراك الوجدانى والذهنى ، فهو فى العلم اجماع وتوثيق ... وهو فى الصحة النفسية يعنى تكامل الشخصية ... وهو فى السياسة يعنى أن الكل فى واحد .. وهو عند الشعراء والفنانين والمتصوفة يعنى وحدة العمل الفنى .

ان الوحدة علامة القيمة .

وقد حقق الفن الاسلامى الوحدة فى تنوع ... كما أن روائع مصر القديمة شاهدة على التوحيد والتنزيه ولكنه تفكير الخاصة كاخناتون والفنانين وهذا يدلك على أن الاسلام دين الفطرة السليمة فى كل زمان ومكان .

الاسلام دين الفطرة ... فالفطرة السليمة تهتدى اليه بلا نصوص كما فعل حى بن يقظان ... لقد شرح ابن طفيل المسألة عقلانيا ولكن التجربة الدينية التى أريدها ، بصيرة ... انفتاح لا يعادى العقل ولكنه أبعد منه مدى ... انفتاح يرى الخلد لا يعنى استمرار الزمن ولكنه يعنى ما وراء الزمن .

الصلاة صلة بين الله والانسان وهى فى الاسلام تطهير للذات وانفتاح بها للنور...ورفع اليدين فى الصلاة استشراف الى العالى.

الى السـامى فى عمليـة مجـاهدة وخلوص ... وهـذا يفسر الآية الكريمة :

(الا ان أوليـاء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لـماذا ؟ بفضـل هـذا النور .

ومن توفيقات العامية أنهـا تسـمى negative الصـورة (عفريتة) لأنها سوداء معتمة . والشيطان أو العفريت هو عكس الله نور النور .

يقول كارليل Karlile فى كتابه (الأبطال) لو لم يكن محمد نبيه (حتة) صدق لما استطاع دينه أن يعطى هـذه الحضـارة كلهـا ...

ولكننا بمواضعات عصرنا وواقع سلوكنا بعيدون عن التوحيـد ... كل منا له هوى وكل منا يتخذ الهاه هواه وهى وثنية .. الجاه وثن .. والوظيفة وثن .. والهـوى وثن ... والشهـرة وثن ... والتعصب وثن ... ونحن نعيش فى هذه الأوثان على الرغم من الاديان حين يقول انـدريه مالروا ... ان المسـتقبل للدين .

الدين جميعا .. فالدين خير كله ... لقد درس الدز هكسلى فلسفات الهنود وبوذا ومصر ويونان والمسيحية والاسلام وخرج من هذا كله بأن الكل يلتقون عند وحدة الوجود كما يقول فى كتابه:
Perennial Philosophy

ان الضلال هو عدم وجود معنى الوجود فى النفس ....

الدين حقيقة كبرى والحقيقة كالعروس ومهرها رياضة النفس التطهر من الشوائب والاهتمامات الصغيرة فى حياة كل يوم ... فالله حين يقول عن القرآن الكريم (لايمسه الا المطهرون) لايقصد (اللمس) ، ولكن يقصد اللمسة التى تشعل الروح وتسعد القلب وتفتح للنفس آفاقا بعادا ...

وهذه اللمسة لا تتحقق الا بالصفاء فيتكشف لصاحبهـا المكنون فماذا به قد أبصر بعـد أن رأى . وما أبعـد الفرق بين النظر والبصر ... لقد انتظر الصينيون بوذا طويلا ليعظهم فلمـا أقبل عليهم رفع فى يده زهرة ولكنهم رأوا ولم يبصروا ، اذ سألوه أن يعظهم ولكنه صمت صمتا نبيلا كمايقول الانجليز

He mentain a noble silence

ويسمون هذه القصة Sermon of the flower

قـال الله تعـالى لموسى (اخلع نعليك انك بالوادى المقـدس طوى ...) انها دعوة الى نظافة الروح والبـدن حتى يستطيع المرء أن يقترب من الرحبات العليا .

فسر الرازى القرآن فى ٣٠ جزءا .. وذات يوم رأى فى المنـام انه دخل الجنة .وانه سئل اتعرف لمـاذا دخلت الجنة ؟ فقال على الفور كأن الأمر بديهى :

ـ لاننى فسرت القرآن .

فقال صاحب السـؤال : لا ولكن لانك صـبرت على ناموسة وقفت على قلمك تشرب منه

وفى هذه دلالة كبيرة وعميقة . فان العطاء من اى حجم ولون اقرب الى الله من تفسير القرآن ... والحرية اكبر من العطاء . هذا هو معنى الدين .

تسريح كفك برغوثا ظفرت به — أبر من درهم تعطيه محتاجا

***

كان أحمد بن حنبل يحدث ابنته كثيرا عن الامام الشافعى على انه الأمل المرجى والرجاء المـأمول .

وذات يوم زار الشافعى ، الامام احمدبن حنبل وبات عنده .

فلم تنم الفتاة وأطل فضولها كله وفضول النساء من عينيها ترقب

حركات الشافعى وسكناته ... وبعد ساعتين قام أبوها من نومه وتوضأ وأخذ يصلى الليل كله .... ونظرت الفتاة الى الشافعى فوجدته نائما أو هكذا يبدو ...

وفى الصباح سأل أبوها ، ضيفه ، الشافعى :

ــ كيف قضيت ليلتك .

ــ على خير ما يقضى الليل ... لقد حللت وأنا مستلق على ظهرى مائة مسألة مما يهم المسلمين .

هذا هو الدين فى قمته التى تعلو كثيرا على القيام والقعود ...

ان الذى يشغل كثيرين من المسلمين اليوم هو (نقض الوضوء)! مع ان هذه المشكلة الخطيرة يحلهــا كوب من المــاء ... كوب واحد فقط يغسل به الوجه والكفــان .. المكــانان الظــاهران والمعرضــان لمــا يغسل من أجله .... والا فلمــاذا يغنى التيمم عن الوضوء أحيانا ؟ ان المسألة اعداد ذهنى .

دعا الأستاذ لطفى السيد ، وكان وقتئذ وكيل نيابة المنيــا ، الشيخ محمد عبده فى طريق عودته من الخرطوم ... وحشــد له علماء المدينة تكريما له . فاذا بهم يشكون له مر الشــكوى من متاعبهم فى العمل أى فى الوعظ والارشاد . فلمــا سألهم الأستاذ الامام ، السبب ، قال قائلهم :

ــ اننا نزيد ونعيد للناس فى فرائض الوضوء دون جدوى ... عبثا نقول لهم (يغسل الوجه من منبت الشعر حتى أسفل الذقن ، ومن شحمة الأذن اليسرى حتى شحمة الاذن اليمنى ....

ولم يدعه الشيخ محمد عبده يمضى فى الكلام أكثر من هــذا .، وقال قولته المشهورة :

— يافضيلة الشيخ .. كل واحد عارف وشه من غير مساح .. هندق للراجل حديده فى جبينه !!

* * *

ان البربرية ليست اللون بل التحطيم وعدم الانتاج .

وحين قدس الدين العمل ، حنا على الخطأ الذى يعنى « التجريب » . فليس من الدين الوعيد والتهديد بعذاب الآخرة فى الخطب المنبرية المحفوظة أو المنقولة من الأوراق الصفراء البالية.

فان هروبنا الحاضر من المسئولية سببه تركيزنا على خطورة الخطأ عند الأطفال فى المدارس ، وعند الكبار فى المساجد .. كل خطأ عيب وخطير وجسيم . لماذا ؟ ان الخطأ طبيعى .. والتجارب والخبرات مجموعة أخطاء ... ولهذا فطفلنا عندما يكبر يخاف من المبادرة والعمل حتى لا يخطىء لانه طبع على جرم الخطأ ...

هل سمعت قول النبى (ص) ، (من أخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران) . ما معنى هذا الا أن يكون قد عنى جواز خطأ التجريب والمحاولة والاجتهاد ؟

ليس لنا أن نخاف من الخطأ أو حتى الفشل . فما التجربة والخبرة الا مجموعة أخطاء سابقة تعلم منها أصحابها ، الصواب.

وحين يعمل الانسان آمنا من الرهبوت والخوف فانه يقبل على عمله فى حماسة وفرحة .

وسعادة المرء فى عمله ، الطريق الوحيد الى الاتقان .. كان يشرف على حفريات سقارة مدير يقول :

(عندما أسمع دقة الازميل حزينة ، أعرف أن هناك خطأ فى العمل ، وعندما أسمع دقة الأزميل سعيدة ، من سعادة العامل ، أعرف أن العمل مضبوط) .

اننا اذا قرأنا كتاب (بستان الرهبان) التقينا بهـذه العبـارة (محبة التعب عون عظيم) ... هنا نسمع صوتا مصريا ...

زرت يوما سـقارة ومعى طفلتى فنظرت الى نقوش المعـابد وسألتنى :

لمـاذا كل هذا الفن فى القبور ؟ وكان جوابى فى اختصار :

ـ انه حب الحياة لا الموت .

وحين زرنا معا معبد ميراروكا ، أخـذت تهرول بين الحجرات وتعد ببراءة ، حتى اذا فرغت من العد والاعادة سألتنى كالمأخوذة:

ـ ان بالمعبد ثلاثة وثـلاثين قاعة مملوءة بالنقش واللون ... هل تحتاج الجثة كل هذا المكان برؤاه وحلاه ؟ وصدقت ، ان المقبرة عندهم لا توحى بالحزن .. انها متحف للفن يسعد الرائى . وتؤكد اعتقادهم بوجود الروح .

ان الاحتفال بالعمل فى فرحة وغنائية ، ظاهرة يندر وجودها فى فن آخر ... وحركات العمل على الجدران ليست من نثر الحياة بل هى من شعر المسرح أى « باليه » ...

ومن معجزات الحضارة المصرية انهـا حققت هـذا كله بأبسط الوسائل .. وهو درس يجب أن نعيه لنتعلم معنى الارادة ، والعزم ، والطموح والاصرار ...

هذا هو الكفـاح الذى نريد أن نطبع أولادنا على الايمـان به ليتسلم الشعلة جيل أفضل ، **يعيد كتابة التاريخ** .

***

ان الاعلام يركز على القيمة الاقتصادية للعمـل وينسى دائمـا **القيمة الانسانية للعمل** ... العمل المترع ببشرية العـامل ...

اى حب صاحبه له ، لا العمل الذى تستطيع الآلة الاليكترونية ان تؤدى أضعافه ..

ان الحضارة قيمة .

فالذى يتكلم أثناء العمل لا يعرف آداب العمل أو كرامته .. آداب العمل هو الخلوص له . **والخلوص نقطة لا ترى ... نقطة تلاقى الكيان الانسانى بمذخوره ، مجمعا ، فى سن القلم أو الريشة عند ملامستها للصفحة أو اللوحة .**

هنا يكون العمل **عطاء قلب ... وفيوض روح .**

ان العمل الحديث لم يستأنس بعد ... انه يضفى على الانسان خيرات مادية ولكنه يسلبه انسانيته ... أى يحوله الى آلة .

لا استغناء عن الآلة .

لا عود الى الوراء .

ولكن ما نريده هو **استئناس وتصحيح للآلة .**

لقد قتلنا .. كما يقول هكسلى ، « الكرافت » أى الصنعة اليدوية ، أى **فن توليد الحب .**

اننا الآن نشيع اللاحب فى الحياة الحديثة أى « الآلية » الحاسب الاليكترونى حين يحرر الانسان من الأعمال الصغيرة ، مقبول كما حررت المطبعة ، المؤلف ، من النسخ .

ولكن العقل الاليكترونى حين يلغى عمل الانسان أو يطغى عليه مرفوض . **ان العمل ايمان .**

ونحن حين نتهم الشباب بقلة الايمان ، ننسى أن السبب اولا : قلة العمل .

لماذا كانت حضارة مصر دينية ؟

لانها عملت فذاقت حلاوة العمل فارتبطت بمعنى الكون .. ولهذا

تجد اشد الناس ايمانا ، الزارع ، حتى ولو كان أشدهم تخلفـا او فقرا لأن الزارع يحنو على الأرض ويحننها ويستولدها ....

* * *

الدين يأمرنا بالنظر فى ملكوت السماء والأرض فى محاولة لقراءة الافكار ... افكار الناس اقصد وأفكار الأشياء ... ان الدنيـا عوالم شتى وليس عالم الانسان بأوحدها ... هناك عالم الحيوان وعالم الحشرات ... هناك عالم الأفلاك وعالم البحـار أما مملكة النبات فعالم رائع له عقل كلى كما يقول اخوان الصفا .

حتى الفضاء ليس خلاء كما يبـدو للعين المجردة .. انه حقل نشاط .. وهذا النشاط عندما نتلقاه بحواسنا البشرية ، يبـدو الوانا مختلفة ، ومرئيات ... فزرقة السماء ليست فيها ، ولكن فى عيننا بتركيبها ووظائفها وخلاياها .. تماما كما نقول ليس الألم فى المطواة ولكن فى حركتها من جسم الانسان...

يقـول الدكتور حامد جوهر فى مجلة المجمع العلمى ، انه عصر البحار لا الفضاء . هبهم وصلوا الى الشمس فليس هذا الوصول أعماق الفضاء ...

انه كما تنبش دجاجة فى الأرض وتحسب نبشها «بحثا جيولوجيا»

يقول الدكتور محمود خيرى على ان قطر الشمس يعادل ١١٠ مرات قطر الأرض واذا ذكرنا طوله بالكيلومترات المعتـادة فانه يبلغ مليونا واربعمائة الف.وان حجم الشمس بالنسبة للأرض يبلغ مليونا وثلثمائة وخمسة آلاف (١ر٣٠٥ر٠٠٠) مرة .

وهنا نقول : ما هى أمريكا أو روسيا بالنسبة الى الأرض ؟
ما هى الأرض كلها بالنسبة الى الشمس ؟

ذرة من غبار فى مدينة الشمس لو ان الشمس مدينة .

ثم ما هذا كله مجتمعا ومتفرقا بالنسبة الى الله ؟

قتل الانسان ما أكفره ... وما اجهله ... هل أوتى من العلم الا قليلا ... انه مارد اذا قيس بالميكروب الذى هو $\frac{١}{١٠٠٠}$ من الملليمتر ولكن متى قيس الانسان أو حتى الاشياء بالحجم ... ان المقيـــاس ؟. **القيمة** .

ان عصرنا يتسابق فى محاولة اكتساب فضيلة علوم المـــادة أى الطبيعة والكيمياء فاكتسب الفضائل والرذائل معا .

ان T. W. A لا تقاس بالطـــائر الصغير المهـــاجر الذي يطير مسافات شاسعة على جناحه الدقيق ... هذا هومعجزة القوة..

ان فضائل علوم الحياة ، الايمان بالقوة الأعظم .
التى تعطى من الطين الوردة والعنبة .

التى تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل
وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى .
هـــذه وظيفة الثقـــافة

تضوىء قيمة الدين وقيمة الحضارة
ان المدنية كما يقول الاستاذ مريت غالى فى كتابه

Tradition for the Future تتطلب قبل كل شىء مجموعة من القيم ، والآلات لا تمت بصلة الى القيم . وما لم تعن المدنية عناية حقيقية برفع وتحسين الانسان لا تحسين الادوات التى يستعملها فلا أمان ولا اطمئنان ....

❊ ❊ ❊

أعرف أن الانســـان مولـــع بالخيـــلاء يزدهيه النجاح والمـــال والشهرة ولكنه حتى اذا كان غنيا ناجحا مشهورا ، ضعيف ضعيف

والقوة لله وحده .. والعزة لله وحــده أما الانســان فلن يخرق الارض ولن يبلغ الجبال طولا ... يقولون عن عصرنا هــذا مره عصر العلم وتارة عصر الفضاء وطورا عصر الذرة ... الخ ولكن ما أطلقه الانسان فى الفضـــاء وما اخترعه فى الأرض ، صـــغير صغير الى جانب ما لا يحصى من عجـــائب مخلوقات الله ... ان دقائق التكوين فى الحشرات التى يعتبرها الانسان أتفه الاشياءحتى ليستخدمها فى غضبه اذا اختار ، السباب ، سلاحا يشهره ! شيء مذهل حقـــا ..

علام الغرور اذن ؟ ليت الانسان يرى أخوته فى الانسانية ممن تمتلىء بهم المستشفيات ليعرف قوته الحقيقية .

ليته ينظر الى شجرة واحدة من مـــلايين الاشـــجار المنتشرة فى الطبيعة ويتأمل روعة الخلق فى كل ورقة منها وكل غصن ... ليته يسمع سيمفونية الإلوان فى روضة من الرياض أو موسيقى العبير ... ماذا يستطيع الانسان ازاء هذا كله ؟ قصاراه أن يقلد وقـــد يتقن التقليد حتى تبدو وروده الصناعية وكأنها طبيعية ولكنها تظل بعد هذا ينقصها النبض والرفيف والشذى ... تنقصها الحياة .. أى ينقصها كل شيء ...

ليت الانسان يتأمل **عالم النمـــل ... وعالم النحـــل** ومواهب الصبر فيهما والتنظيم والاحكام ثم يصنع عالمه هو بما يليق بالفارق الهائل بين الانسان وسائر المخلوقات .

ليته ينظر كما قال المسيح الى **زهرة الحقل** . انهـــا لا تغزل ولا تنسج ولكن سليمان بكل عظمته لا يبلغ جمالها .

ان الذى ينظر الى الناس نظرة سطحية قريبةيجد فيهم موضوعا للتصنيف والتقسيم حسب الفروق التىتبدو لعدسته الصغيرة . ولكن أولئك الذين يرتقون الى قمة المعرفة ، يرون من فى السفح

أشباها اذ تدق الفروق حتى تكاد تتلاشى ... هل يفرق النيل بين ابناء الوادى ؟ هل تفرق الشمس بين النـــاس أو حتى الشجر ؟ وكذلك البحر والليل ... وأهم من هذا كله ، الموت الذى لايرحم القابا أو أذنابا ... الكل أمامه سواء من تبارى الطب فى انقاذه، ومن لم يجد ثمن الدواء ...

ان الانسان الحر هو الانسان الموضوعى لا التابع .. وقد تكون التبعية لفكرة ثابتة أو متحركة .. وقد تكون التبعية لهـــوى يحجب الرؤية الكاملة .. وقد تكون التبعية لضيق النظرة فلاترى الاالظاهر القريب ... حين تطوى النظرة البانورامية المسافات والابعـــاد والأعماق .

لـــماذا لا نعامل الفقير كما نعـــامل الامير ليشب أبنـــاؤنا على التواضع من سحر القدوة ، لان الفقير قبـــل أن توزع الأقـــدار الثروات ، انسان له المشاعر نفسها وله قلب وله أعصـــاب ... له التكوين العضوى للانسان . فما يحبـــه الواجـــد من الاحترام والتقدير والمحبة ، هو نفسه ما يتمناه الفاقد .. لأنه ، أيضا انسان .

ثم ماذا يعرف الناس عن الحياة ، وما قبل الحياة ، وما بعـــد الحياة ؟ هل أوتوا من العلم الا قليلا ؟؟وحتى هذا القليل قابل للشك والنفى والاثبات والتعديل والتغيير .

ولكن الانسان المزهو بنفسه يحلو له أن يتعالم ويدعى التبحر فى المعرفة ، ناسيا أن العلم وصل فى علمه الى أن عمـــر كوكب الارض ألفى مليون سنة ، وأن عمر البشرية من هذين الالفين انما هو المليون الاخير ، أى أن البشرية (وارد حديث) بلغة الموضة. ترى ماذا يعرف المزهو بعلمه عن هذا المليون بل الألفى مليون الأولى.

الا ليته يعرف ... لو عرف لادرك حجم الكثير الذى ينقصه. ...

وهنا يحضرنا تساؤل الاستاذ العقاد عمن رأى أول فجر فى سماء الكون لاح ! .

كم شروق لم نره ؟ كم أصائل كم من الزهور نبتت ؟
ان الارض ومن عليها وما عليها ليست الا كوكب فى المجموعة الشمسية وليست الارض بأكبرها ..

ان فى جسم انسان واحد آلاف الخلايا الحية ... هل استطاع الانسان ان يخلق خلية واحدة ؟

ان قيمة الانسان فيما يعطيه وفيما ينفع الناس منه .. اما بشرته ولون عينيه وفراهة جسمه فأشياء لا تدخل السرور الا على قلبه الفرد حين ينظر فى المرآة ....

وقد اكبرت الاديان (العطاء) .. عطاء القلب للحب ، وعطاء العقل للعلم ، وعطاء اليد للفقير ، وعطاء الوجه للضعيف ، وعطاء اللسان للتحية والتسليم والايناس والودادة .. حتى الكلمة الطيبة صدقة .
واذا آمنا بالعطاء فان أحق الضعفاء بحناننا المريض والفقير...
لقد بلغ الحنان على المريض ، بالحكيم المصرى امينوموبى ، أن قال (كن مرضعا للمريض) كم فى كلمة (مرضع) من أبعاد فيها من حدب وحنان ورحمة وعطاء وحب رءوم .

اعرف أن الانسان من طبعه يضيق بالمريض فخدمته شاقة وقد يكون مرضه منفرا ، والاقتراب منه فى هذه الحالة،عبء نفسى. فأى ملائكية تلك التى تمنح مثل هذا الانسان ، لا الرعاية فحسب، بل فيوضا من عطاء القلب والروح ؟

أما الفقير فهو انسان مجروح مهما بدا للعين سليما .فقدكان الاستاذ المازنى يقول : (الفقر فى المال فقر فى كل شىء) .. والانسان الطيب الفاضل حقا هو الذى يوفر للفقير ، لا أقول

طعاما أو كساء ، بل يوفر له الكرامة والاحترام فلا يمتهنه أو يذله بالمن أو التظاهر بالعطاء ، ويوفر له حياءه فلا يعوزه حتى يسأل .

ليتنا نترفق بالفقير فلا نلبس عطاءنا ثوب الحسنة المتفضلة بل نلبسه معنى الاهداء بوداده ورقته حتى تطيب نفسه بأخذه.

ليتنا نتجاوز عن دينه عندنا أو بعضه ... أو حتى نتجنب طريقه المعتاد ومجلسه حتى لا يشكل وجودنا نداء صامتا أو مسموعا يتقاضاه ...

ليتنا نعطى الانسان ونعطى الأشياء أيضا فلها روح تبادل وتتقبل ...

* * *

هذا عطاء القلب .. أما عطاء العقل ففى شجاعته .

من محفوظاتى فى المدرسة قول شوقى :

اجد الشجاعة فى الجسوم كثيرة   ووجدت شجعان العقول قليلا

وحين أراد شاعرنا أن يزيد الأمر وضوحا ضرب المثل :

سقراط أعطى الكأس وهى منية   شفتى محب يشتهى التقبيلا
عرضوا الحياة عليه وهى ذليلة   فأبى وآثر أن يموت نبيلا

ومن العجيب انه ، بعد صدور الحكم عليه ، استمر يتحدث الى تلاميذه فى .... الفلسفة ! لم يزايله هدوء نفسه ، ووثوق لهجته ... ونظر تلاميذه اليه ، والى الكأس أمامه مملوءة بالسم الزعاف تنتظره ليشربها ، وقالوا :

ـ ألا تحضر نفسك ؟

فابتسم وقال : لقد عشت طول عمرى أحضر نفسى لهذه اللحظة .. أى يموت فيلسوفا !

أسلوب موت .

بل أسلوب حياة .

ولكى نحكم على شخصية ، نعرف أولا موقفها من الحياة والموت . فلا تتعاظمنا مغامرات مصاصى الدماء وجار الحروب .. فهذه شجاعة الجسم التى قد تفوقها ، شجاعة بهلوانات السيرك الذين يخاطرون بحياتهم ، على الرغم من ابتسامتهم المرسومة ، حين يسيرون على الحبل أو السلك ، متعجلين يوم القيامة والمشى على الصراط .

ان الشجاعة شجاعة العقل حين ينصر الحق ، ويعلن الرأى ، ويحارب الظلم ، فبقراط وجاليليو وذو النون والعز بن سلام والبويطى ، وقبل هؤلاء جميعا الأنبياء ... ودعاة الحق .... هم الذين نسجوا من أيامهم حياتنا الفكرية والروحية ... حياتنا الحقيقية ...

ولكن اعلان الرأى غير التعصب للرأى ..

ان التعصب للرأى ، سذاجة .

ان الحقيقة لها أكثر من وجه فلماذا لا نريد رؤية الجوانب الأخرى للموضوع؟ قد تكون أقل ولكننا لن نضار فغالبا سنكسب جديدا ...

ليس من الدين أن نقطع الطريق اذن فى المناقشة على الآخرين بل ننصت جيدا ... وجادلهم بالتى هى أحسن وليتنا نحتفظ بالصوت الخفيض الهادىء عند احتدام الجدل فانه أعمق أثرا وتأثيرا ، مستمعين الى الآية ((واغضض من صوتك)) ... أن الجدل ليس الانتصار كما يفهم معظمنا لأننا ولدنا أزهريين قبل أن ينشأ الازهر ، ولكن الجدل اختيار ... أن الذكى من يعرف

كيف يختار رأيه ثم كيف يطرحه .. ويميت فى نفسه ، شهوة الانتصار على الغير فى مناقشة بنج بنجية تتقاذف الالفاظ فيها كما يتقاذف اللاعبون ، الكرة . فان قصاراه فى هذه الحالة أن يخلف فى نفسه مرارة الهزيمة أمامه .... وما اغناه عن هذا النذير .. نعم فسوف يحفظها له ... وفى أى مناسبة تواتيه سينتقص من قدره ويهون من شأنه ليرد اعتباره أمام نفسه على الأقل .

المتدين والذكى لا يحترف الجدل فهواته خاسرون وان كسبوا .

ان السمع نوع من الكرم .. انه استقبال رأى ، واستضافة فكر جديد ... فكر آخر ... ان حسن التلقى فن .

المتدين لايتعصب للون، ولايتعصب للدين نفسه، ولايتعصب للوطن ... نتمسك بديننا ونقدس وطننا ولكن التقوى غير التعصب ، والوطنية غير انكار الآخرين فهم أيضا مثلنا يحبون أوطانهم فلا خدع أعظم الفضائل الانسانية تغدو كما يقول V. H. Auden اسوا العيوب البشرية ...

(لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ... اعدلوا هو اقرب للتقوى) .

(ان أكرمكم عند الله أتقاكم) .

أرأيت ان الله يدنى منه أعمقنا ايمانا ، لا أشدنا جمالا ، أو انصعنا بياضا .

(المؤمنون اخوة) .

الناس كلهم اخوة لأن الاسلام اعترف بما سبقه من أديان وانبياء ... وهو اسلام من السلام . وحين عرف رسوله ، المسلم ، لم يربط حديثه من قريب أو بعيد بالطقوس ، بل قال (المسلم من سلم الناس من لسانه ويده) وقال (الدين حسن الخلق) .

هذا هو الدين .

الدين دماثة فى الخطــاب ورفق ... هل من الدين ما حكــاه الدكتور طه حسين فى ، (الأيام)، من أن شــيخه ناداه ، وهو الطالب الضعيف الخائف من الامتحان ، (أتقدم يا أعمى) ؟

فى اللغة الانجليزية حوار بين كفيف ومبصر يصف له الثلج نزولا على رغبته قائلا :

انه ابيض كثوب الملائكة

خفيف كالفكرة

بطىء كما اقبل عينيك

... ...

هذه هى البلاغة الذكية ... فالوصف الذى يعتمد على الخيال والمعنويات يسر الكفيف ولا يحرجه لانه وصف يســتوى فيه المبصر ومن اغلقت على النور نافذتاه ... وصف لا يشــعر بالحرمان ولا كذلك الذى يطعن به ....

* * *

الدين جعل الأمر شورى فلا يستبد انسان برأيه .... ان منح الثقة لمن حولنا يشحذ طاقتهم لخدمتنا ... فليس من الرياسة أن تدس أنفنا فى كل شىء كذلك التركى الذى كان يوما وزير أوقاف فى مصر،فحتم على الوزارة أن تعرض عليه كل ورقة صغيرة أم كبيرة. فكان يكتب على كل ورقة مهما اختلف الموضوع :

(يجرى اللازم حسب الأصول) . ولم يقل يوما ، ماهو (اللازم) وما هى (الأصول) ! مجرد تحكم .

ان الرياسة شكل تنظيمى ولهذا يقول النبى (ص) (اذا كنتم

ثلاثة أمروا واحدا منكم) وهو يعنى التنظيم لا الأمر . والنبى يعنى بهذا ، أن الرياسة اختيار لا تعيين .

دين وذكاء أن يكون الانسان مرنا متفهما رحب الأفق كبير القلب رقيق الحاشية يحترمه الجميع عن حب لا عن رهبة ... كان الشاعر الانجليزى كيتس يقول : (الشاعر لا شخصية له . فأنا اذا كنت فى مجتمع أطفال ، غلبتنى طفولتهم فأصبح بينهم طفلا . واذا كنت فى مجتمع سيدات ، أكون سيدة . واذاكنت بين أشجار ، أكون شجرة) .

لقد كان « كيتس » فى هذه العبارة على الأقل ، رقيقا متواضعا ... فالذى قاله لا يعنى عدم الشخصية ولكنه يعنى العبقرية بعينها . . ما يقوله هو الطفولة الخالدة سمة العظماء . فالانسان العظيم هو الذى يملك **قدرة الالتقاء** مع الناس والأشياء ...

ولكن هذا الالتقاء أو القدرة عليه لا تعنى المسايرة التامة ... فأحيانا كثيرة لا يعنى اجماع الناس ، الصواب ... وهنا لا يتعاظمنا الاجماع .... لنمض فى طريق الحق . أقولها وأنا أعلم أن القابض على دينه كالقابض على الجمر ... قد يسخر الناس من المستمسك بالحق ، وقد يحاربونه ، ولكنه المنتصر فى النهاية .. وقد عاش سقراط خلال القرون ، ومات قضاته وقاتلوه ...

نستطيع أن ننقد ، ونقول أقسى المعانى دون أن نسيل جرحا .. كيف ؟ هذه قصة :

تبنت سيدة طفلا . وبعد سنوات رزقت اطفالا .. وبدا لها أن تحدد الموقف . فأخذت الجميع فى رحلة ، خارجا ، فى عملية شرح للنفس قصد بها الطفل المتبنى أولا ... وفى جو متهيىء خلت بالطفل وقالت له :

— هل أستطيع أن ائتمنك على سر غال ؟

وأشرق وجه الطفل لهـذا اللون من الايثـار . وبرح بالثقـة والمسئولية . وقال فى حماس شديد : نعم .

هنا : الت السيدة فى هدوء وحنان وذكاء :

— اخوتك هؤلاء أعطاهم لى الله . وليس لى فضل فيهم ، أو فى اختيارهم . ولكننى اخترتك أنت من بين ألوف الأطفال ...

وفهم الصغير كل شىء دون أن يدمى قلبه ... بل أكثر من هذا أنه غدا يعتز بدلالة الاختيار ....

الدين يعلمنا فن الصداقة حين يقول (لا تستوى الحسـنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عـداوة كأنه ولى حميم)

دين وذكاء معنا أن نتفادى العداوة ما استطعنـا ، فهى تخريب للنفس مهما كان الانسـان على حق . ولأهون تخريب الخارج من تخريب الداخل ...

لنزرع الحب ونتعهده لينمو ، ليس فى نفوس أبنائنا فحسب ، ولكن فى نفوس الناس أيضا . وليس هذا بالأمر الصعب . فان القـلوب كثيرا ما يلين نافرها بالكلمة الحلوة ، أو الهدية البسيطـة ، أو السؤال العاطف ، أو الزيارة الحفية ، أو الدعـوة الكريمة ، أو حسن الاستماع ، أو اطراء ذوق الواقف أمامنا اذا رأينا لذلك موضعا. ... وكلها أمور بسيطة لا تكلفنا كثيرا ... وتكليفها على كل حال أرحم من العداوة ... اننا لانسع الناس بمالنا ولكن يسعهم منـا حسن الخلق ...

أما اذا فرضت العداوة علينا فرضا فنقاوم ما استطعنا الغلو فيها والمغالاة ... ان الله حين قال باسم الله الرحمن الرحيم

فانما هو تأكيد للرحمة . وكان من الممكن أن يقول الرحمن العظيم مثلا ، أو المنتقم الجبار ، ولكنه اختار الرحمة دون سائر أسمائه الحسنى ...

حتى القاسى يستحق الرحمة لأنه محروم من النـــور ... نور الحب ... القاسى ليس انسانا كاملا ... انه كسر انسان لانه موتور مشروخ ... داخله شىء مكسور ... انسان غير سليم... لم يتكامل ذاتيا ...

وهل سمى الرحم الا من الرحمة ؟ فالرحمة أســـاس الاخـــوة والقرابة ...

والرحمة والمودة أساس الزواج وزاد رحلة الحياة .

انها رحمة أن يضاعف الاسلام الجزاء فى الحسنة ويقصره على المثل فى السيئة .

لقد كرم الله الانسان حين استهل القرآن الكريم بفاتحة تقتصر من دون الموضوعات الكبرى على ما بين الله والانسان ، متوجـا هذه العلاقة بالرحمة تظلل الانسان بالطمأنينة من لدن (الرحمن الرحيم) .

ما هو الفن ؟

انه رحمة ورفق وحب . وما أبلغ لغتنا الشعبية حـــين تسمى الصبى المبتدىء (غشيما) ، لأنه لم يكتسب بعد رهافة الاستاذية. كتب ماربيت عن الفراعنة ، أن عاملهم كان يقطع الحجر من الجبل (وكأنه يقطعه من جلده) . وهى عبارة قد تمر عابرة عند القارىء العابر. ولكنها عند المتأمل مقياس علىعدم الاستخفاف والهدر ... مقياس وشاهد عميق على الحضارة والرهافة والاحســـاس .. الاحســـاس بالقيمـــة .. والاحســـاس بالاشـــياء .. ومن هنا نفهم الآية (قوارير من فضة قدروها تقديرا) .

لمـــاذا تعد الاسرة أصلا من أصول الحضارة كالزراعة ؟ لقـــد كسبت هذا الاعتبار بما يشيع فيها من رفق ورحمة ...

ومنذ قديم قدست مصر (الأسرة) حين أحبت أوزوريس وايزيس وابنهما حورس .

ان بداية الحضارة البيت ... البيت المبنى على الرحمة ... وغاية الحضارة أن يكون العالم كله بيتا .. والبيت بهذا لا يقل عن المعبد والكنيسة والمسجد . ولكن **الحضارة الحديثة عدوان على البيت** بتلويث الجـــو بالدخـــان ، وتلويث الاطمئنـــان بالقنبـــلة الذرية والنووية ....

الحضارة الحديثة خلقت مشاكل عمـــلاقة ثم فشـــلت فى خلق الانسان العملاق الذى يحل هذه المشاكل .. فهل ننتظر هـــذا الانسان من موطن الاديان فى محاولة جـــادة مؤمنة لاعادة بنـــاء شخصيتنا ؟

لنسمع صوتنا للعالم المتحضر فى دعوة كبـــيرة مصرية لحمـــاية الأسرة وتقاليدها ...

ان كل وسائل الحضارة الحديثة بقدر ما فيها من ترفيه واسعاد للانسان بقدر ما فيهـــا من مضـــار ان لم يقف وراءها وعى كبير ناضج يميز الفروق بين خيرها وشرها . فان هذه المدنية ما زالت كما يقول الدكتور أحمد زكى (تجربة يمتحن بها أهلها ، كمـــا يمتحن مقتبسوها . وان اهل الغرب فى محنة منها ، بالذى تأتى به من ضائقات وأزمات ، ومن حروب ، لانها مدنية لم تبلغ بعد الغاية منها ، وبعض أهدافها قد تحقق ، وسائر أهدافها ينتظر التحقيق ...

على أنها بعد هذا مدنية انسانية عالمية أساسها تحرر الفكـــر الانسانى من قيوده ، وغايتها رفاهة الانسان واسعاده) .

وهكذا كما نرى المسألة مسألة تمييز بين الفروق دقيق .

ان مهنتنا شاقة ومتشعبة .

ان النصوص الدينية تعانى من الحصانة المحوطة بها .

ذهب رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله فى أمر أحلال هو أم حرام فأرشده ... ثم ذهب اليه مرة ثانية وثالثة وهو يجيبه .. ثم توالى سؤال الرجل للرسول عن الحلال والحرام . فقال بملء حكمة أصحاب الرسالات كلمته الجامعة :

— استفت قلبك .

وهكذا نرى أن المسألة ليست الحلال والحرام ، انما هى كما يقول الشيخ شلتوت فى تعريفه للمعروف : (هو ما تعارفت عليه الفطر ..) وبالتالى فان المنكر هو ما انكرته الفطر ...

واذا كان هذا هو رأى ذوى البصيرة من أصحاب الدين رسلا وعلماء فما بالنا فيما هو دون ذلك مما تواضع عليه الناس من عادات وتقاليد ، أو مما وضعوه من قوانين ؟

الانسان هو سيد الموقف دائما ... بايمانه واقتناعه وقيمه ومبادئه .. فكم من جرائم ارتكبت باسم الدين مرة وباسم الوطن تارة ، وباسم القانون طورا ، وباسم التقاليد حينا آخر .

هل الذين عذبوا فى محنة القول (بخلق القرآن) ومنهم رجلنا « ذو النون » الذى سيق الى (المطبق) فى بغداد .. هل هذا من الدين فى شىء ؟

هل من الدين أن يحمل « البويطى » فى غل الحديد ويطرح فى السجن مقيدا الى أنصاف ساقيه مغلولة يداه الى عنقه ؟

هل من الدين ما اقترفه بعض البابوات فى القرون الوسطى من

تعذيب « غير المؤمنين » ؟ وهم أتباع رسول السلام والتسامح والرحمة الذى وضع فى قلبه حتى « الخاطئة » ؟

أما السياسة فبحر من الدماء صبت فيه الثورة الفرنسية وعهد الملكة مارى وهنرى الرابع فى انجلترا ... كما صبت فيه من قبل الدولة الأموية والعباسية الذى سمى أول خلفائها (السفاح).

السياسة بحر من الدماء لعل أزكاها جميعا دم الشهيد ابن الشهيد ، الحسين بن على سبط الرسول .

ومن العادات والتقاليد الأخذ بالثأر فى الصعيد .. ومن العادات والتقاليد فى الهند دفن المرأة حية اذا مات عنها زوجها وكان من العادات قبل الاسلام وأد البنات فى الجزيرة العربية .

فلا نجعل للعادات والتقاليد سلطانا علينا بغير حدود ولا نجعل للقانون سلطانا علينا بغير مصلحة ظاهرة فيه لخير الناس ، فالذى وضعه انسان يخطىء ويصيب ... بل لانجعل فى الدين وسيطا بيننا وبين الله ... لنتجه اليه هو .. نستوحيه وحده ... وليكن تديننا أملا فيه ، وعلما به ، وحبا لذاته أكبر كثيرا من الحلال والحرام ... حبا ينكر فيه الانسان ذاته فيغدو فى شفافية « ابن الفارض » الذى يقول :

(نفسى فداك عرفت أم لم تعرف) .

***

الدين سلام فى النفس وسلام مع الناس ... هو الهارمونى الذى ينتظم الأشياء ويستقر فى أعماقها ...

هذا هو الدين .

الفـــن

ومن الدين : الفن .

وهنا فى هذا المكان من الدنيا ... نشأ من قديم، الوعى الدينى وقام المعبد بفنونه كلها ... فن التشكيل وفن الرسموفن التلوين. وكأن الفن أو هو كذلك ، تفسير للدين ومقـــدمة موسيقية له بمـــا يوقظ الروح ويفتح القلب لتلقى رقائق المعانى لتطرح فى النفس وردا ... فالفن هو التقوى الحقيقية حين يفهم عبـــاد النصـوص من الدين معنى الخوف من العقاب والرهبة من الحســـاب والفزع من النار .

ان الفن يعلم الصمت كتأمل العابد لان متذوقه يترشفه فى سكون واستغراق يســـمع فيه صـــوت اللون ، ونبض الحركة ، وهفهفة النسمة وهى تحرك الغصن المرسوم . يسمع فيـــه المتذوق صوت نفسه الآتى من داخله والذى يغطيه صخب الكلاموضجيج الحياة .

ولأمر ما لا نجد على المعابد المصرية التى تمثل ذروة حضارة مصر فى عصور زهوها ، فمـــا مفتوحـــا حين كان خلق الفن وابـــداعه يشغلهم عن الكلام،ويعبر عنهم بأفصح من الحروف والكلمات ...

ولعل السر فى هذا أن صحراء مصر تعلم الصــمت ... صمت التأمل ليعرف المصرى الواعى ذاته ...وينظم حيويتها ... وقد وعى القدماء هذا الدرس من الصحراء ..ولكننــا اليوم نريد أن نهرب من ذاتنا فنهرج لعل الضجيج يريحنا من مســئولية معرفــة الذات ولوازمها ، ومسئولية العمل معا ...

والفن الذى أقصده ليس ذلك الفن **العرضى** الذى يحيط الــذات بوثارة من لذائذها وأحلامها كألف ليلة وليلة ، **وانما هو الفن الخالد** الذى يحيط الذات بأفراح وسعادات بلا حدود لانها وراء الحدود.. فن معراجى ترقى عليه النفس الى الآفاق العليا .

ان الفن تكريم الحياة بالقيمة .

لقد كان أفــلاطون يقول أن الموسيقى منطق الخلق حين يتسق مع الخالق.وهذا هو معنى الفن ... **والتدين بتذوق الفن** عبــادة شفافة . وخير لنا أن نقرأ تفسير القرآن فى متحف الفن الاسلامى لا شرح المفسرين .:

فرقائق الحفر فى الخشب أغنية للشجر .

والنافورة صلاة المياه للنور .

وعمارة المساجد صلاة تشكيلية .

مثال هذا **جامع اللؤلؤة** فى الهند المشبع بزهرية الآزهــار حتى ليكاد يكون زهرة كونية كبيرة فيها أنس وايناس وشذى ... فيه سكون وسكينة ورفعة .

وجامع برقوق فى القاهرة انه شعر من حجر ، خف وشف وعبر أبلغ تعبير .. وهو بالرحابة والثبات واحساس الأمان الذى يعطيه ، أشبه بالمعبد المصرى .

ان المعمار الجميل فى المساجد تسبيح لله.

ان المسجد فى الهند استشفاف مجسد للمعبد الهندى أرق وأجمل بالخبرة المعمقة للاسلام بما هو خاتم الأديان .

كثيرا ما يكون التشكيل لغة ذات جرس وموسيقى وأوزان .. الاسلام عبر عنه الفن الاسلامى والتصوف أما الأدب فهو جاهلى حتى فى اسـلاميته ... الأدب العربى لم يستطع — الا أمثلة قليلة — أن يسلم . وحين استهدى الاسلام ، سجع !! فأفسد السجع . ان الأدب الفارسى الاسلامى مسلم فعلا — هـذا حين ملأ الفرس الأدب العربى بالبديع والمحسنات اللفظية على طريقتهم فى نقش السجاد .....

حتى أصحاب العربية المحدثين حين راموا التجـديد والتحرر من القافية اتجهوا الى الغرب !

حتى الفكر الاسلامى وجد واحته وراحته عند المتصوفة ... أما اللغة فهى عند ابن الفارض ونظرائه أجمل .

على أن التذوق الفنى فحسـب هواية مترفين ولكن أكبـر منه تحقيق حياة المشاهد من خلال الفن **وترشيدها** واضاءة ضميره واكتشاف حكمة لا توجد فى الكتب ...

ان التلقين يقول ان معبد زوسر الذى صممه المهندس الفنـان الطبيب الأديب أمنحتب يمر الدالف اليه بممر ضـيق طويل ليخرج منه الى الرحابة الرحبة فى البناء وفى المكـان ... ولكن القراءة الواعية تقول ان الممر الضيق الصـاعد ببطء فى المعـابد المصرية ممثلا مراقى الصعود الى مملكة السماء كما يقـول كابارت ، لون من الأدب المعمارى ... انه عملية تحضير للـدخول ... وتجميع للنفس ... **ودعوة للصمت** يفتح بعدها المكان قلبه وذراعيه .

واذ تبهر من فخامة البناء ، وايقـاع التنـاسب ، وبساطة الزخرف .

ينشرح الصدر (*)

وكأن الزائر سلم .

فالمر الضـيق طريق الى (المعرفـة) الواسعة و (العلم) . فالصمت هنا فريضة لأن المعرفة كما يقول الصوفى أبوعلى الدقاق، توجب السكينة فى القلب كما أن العلم يوجب السكون .

وهذه هى أناقة العمارة وانسها فى الفن المصرى .

ان الهندسة المجردة Geometry هى علم قياس الأرض . ولكن الهندسة المصرية القديمة ترتفع الى صـفاء النفس ... عمارتها تتحول الى بستان بما فيها من نبض وخفق ودفق ومشاعر، حتى المربع والمستطيل بمحدوديتهما بينهما حوار ودى يربطهما بالكل بشكل كامل متسق تمام الاتساق ... وهـذا الاتسـاق فى الفن المصرى لا ينبع الا من نفس متبلورة ذات ملكـات . فان مناسبة الخطوط بعضها بعضا فى رونق أخاذ واخراج متوافق يتطلب من المصمم كما يقول الدكتور العريان فى كتابه (مدخل الى الهندسـة) : « احساسا جماليا تغذيه بعض ملكات الفنون الجميلة والتطبيقيـة ليتكـامل لعمله عناصر الابداع والفنية الى جوار عناصر الفائدة والنفع »

وهذا اللون من الاحساس الجمالى كان وراء الخطوط المصرية . فان الخط فى التصوير المصرى مفعم طاقة . انه تصوير بالنور على الحجر ولهذا هو ملىء بالرؤى .. ان الحجر المصرى محظوظ فلم المصرى بمـا فيه يرو حجر مثله من وجدان مترع بالحياة كالوجدان من رى .

ان العمـــل الفنى الرائع كلمة خضراء تستوعب رؤى عصر من العصور للكون بصورة مصفاة منماة . عمل تحس أن صاحبه توضأ قبل أن يزاوله وكأنه الاستجابة لدعـــوة امرأة فرعون ... حقـــا انه قصر من الجنة .

ان السموق فى عمود المعبد ونخلة الحقل ومئذنة المسجد شوق الى أعلى وتوق الى فوق .

ان الرائعة الفنية خلاصة تجربة الوجدان البشرى فى عصر من العصور ... الوجدان المصـــفى المودع فى العمـــل الفنى وكانه سيمفونية بيتهوفن الخامسة .

والفنان رؤية جديدة للحقيقة يتفتح لها حوله وفى أعماق نفسه أن من توفيقات العرب تسميتهم صاحب القصيد « شاعرا » وهو تعريف للفنان الذى يستشعر القيمة .. ان كل فنـــان شـــاعر وأحسب لو عرفوا فى الجاهلية ألوانا غير فن القول لسموا الرسام شاعرا والموسيقى شاعرا ... أيضا ...

ومن توفيقات ابن البلد عندنا انه يصـــف الكلام الجميل بأنه (يروق الدم) أو (يردالروح) .وترويق الدمصحيحتىطبيا.فعملية « الانشراح » والانفتاح على مايعجب النفس او الحس لها اثرها الملموس على الانســـان ... أما قـــوله « يرد الروح » فعبـــارة تنتمى بحس بعيد الى معجزة المسيح فى احياء الموتى وليس بلازب أو لازم أن يكون الأحياء فسيولوجيا ، بلأعتقد أنه معنوىكلمسة الرحمن حين يخلق من الطين انسانا .

وبهذا المعنى يجب أن نفهم المسيحيـــة والاســـلام .. انهمـــا فى جوهرهما روح وفن.فالفن يشف الروح.وحين تغدو الروح شفة عفة تقترب من رحاب الدين .

وهنا يكون الفن مدخلا الى الدين .

ومن هنا نفهم أزمة الانسان المعاصر . فهذا الانســـان عنيت التربية بذهنه دون وجدانه ، فعجز عن ايجــاد المعــادل المعنوى للتقدم العلمى .

ان البحث العلمى الحقيقى تجربة وتجرد . وعصرنا امتــاز فى الاسلحة ومنها التليفون والبرق ... الخ ولكنه يفتقد القيمة التى تتركز فى الدين والفن والفضيلة .

ان مقياس النيل بالروضة جهاز علمى ولكنه امتزجت فيه القيمة الفنية بالعلم . وهــذا هو الفــرق بين العصر الوســيط والعصر الحاضر ...

ان الفن اليوم فى المنفى .. اذ ليس له فى المجتمــع وظيفــة اساسية . السائد اليوم هو فن الاعلان وفن الترفيه ، بينما الحياة الاصيلة وثيقة الصلة بالفن تعطيه ويعطيهــا ... بينهمــا زواج سعيد وانجاب رائع ...

لقد ربى وطننا الفن ... فن الحياة وفن الفن ووصل به فى باب التركيب الى أعلى درجــات الغنى ... غنى القيمـــة ... ولكن حياتنا الفنية تصفق اليوم لفك الخط الفنى .

ان الانسان اذا حافظ على انسانيته فهو تلقائيا فنان ... ان الآلية .. الروتين .. العادة الميتة تقف بين الانسان والفنان ... الروتين أعدى أعداء الفنان كما يقول هربرت ريد .

اليوم ، الفن هو النادر .

وفى مصر القديمة كان الفن هو القاعدة .

والفن غير الفوضى والبوهيمية بل الدقة الدقيقة ... ان القول القائل ان من ليس معنا فهو علينا ... هذا القول صادق فنيا . فأى

فضول أو لغو تعبيري ، يسىء الى العمل الفنى فلا يصل الى (النقاء) الذى هو أمنية الابداع .. أما النسبية فهى حل رخيص.

ان الفنان باحث كأعمق ما يكون البحث وهو يسلك كل خطوات العلم والعالم .. كل خطوات الدين ... فالفن ليس فهلوة .

ان الصناعة وهى دون الفن ، بما هى (وسيلة) التحقيق ، تسبقها عملية تحضير وقد تكون غير واعية ... عملية جمع خبرات وتحليلها .

ان معدة الفنان فى عقله ... فى جهازه العصبى يلتقط ويتغذى ويتمثل وينمو ....
حتى الفنان الشعبى دارس فهو لم يولد خزافا أو زجالا،ولكنه سمع ووعى واختزن .. كان (صبيا) عند (معلم) .

وهكذا نرى أن الفن موهبة وجهد وتحصيل وبحث وعطاء ... والمعنى فى الفن يستلزم نوعية الأداء .

والمتذوق الحقيقى هو الذى يعطى نفسه للأثر الفنى يستطيل معه ويستدير معه ويتأفق ويترأس أى يصير افقيا تارة ورأسيا تارة أخرى وفقا لخطوط الفن .

ان فهم الأثر استماع للفنان . وارتباطنا بالاعمال الفنية كسب لقلوب أصحابها .. والانسان الحساس كالآلة الموسيقية يبعث منها ، حتى الهواء العابر ، الانغام .. والرؤية الحقيقية للفن هى ابرة الجرامفون تلمس الاثر فتبعث النغم .

قلبى يدعو الله أن يهبنا نعمة البصيرة بقدر ما وهبنا نعمة البصر والعيون الجميلة .. فبالبصيرة نتذوق كل ما فى دنيانا من معان،لأن البصيرة قدرة على النفاذ الى عمق الاعماق ... قدرة على الحب .. على التعاطف ... المشاركة الوجدانية .. السكن

الى وجود الآخرين ... ولهذا لا أعد الامتلاك من الحب فى شىء .. ولكن الخروج من الجلد والامتزاج بجوهر الناس والأشـياء هـو الحب.. وهذاما جعل الدزهكسلى فى روايته . Bravely World ينعى اختفاء الحس الانسانى فى الفن المعاصر فيخرج مشوهـا كأطفال أنابيب الاختبار الذين يحلم بهم العلم الحديث حين يرى الأمومة التى هى قمة الحب ، أعظم الحقـائق التى تمس القلب البشرى .

وهل سمى الرحم الا من الرحمة ؟

ان الرائعة الفنية هى خلاصة تجربة الوجدان البشرى فى عصر من العصور ... ذروة تكامل القيمة فيه .. خلاصـة الوجـدان المصفى المودع فى العمل الفنى .. وهذا السر المكنون لا تبوح به الرائعة الفنية الا للبصيرة ... وقد يستسر على البصر ...

وهكذا نرى أن الفن له عمل آخر غير الخبر.. غير الحكاية... ان التاريخ لا غنى عنه حصيلة للتجربة البشرية، ولكن يستغنى عنه حين يبدىء ويعيد فى ظهور الملوك واختفائهم ونشوب المعارك والنصر الزائف فيها ...

ان التذوق والثقافة (ادراك) وراء التاريخ الذى هو وقائع.. ولهذا لم يتوقف عطاء مصر بموت آخر الفراعنة ...

كان الرازى يقول : الفن طويل والعمر قصير .

ولكن هذا القول خيال فردى . فان الفن اذا كان حلم جمـاعة، تواكبت الاجيال فى عملية تحقيقه فان الاجيـال لا تموت اذا مات صاحب الحلم .

لهذا نعرف العصر الفنى بأنه رؤية معينة .. حلم معين ابتداء من الاشراق النفسى به الى ميلاد تحقيقه .

وهكذا نرى الثقافة الحقيقيـــة التى لا تأتى من المدرســـة ولا الجامعة ، ولكن من وجدان قادر على ادراك رهائف المعنى .

وليس معنى تركيزى على الفن أننى لا أغالى بالعلم ! فان الحياة لا تستقيم اذا أسلمت زمامها للفن وحده أو العـــلم وحـــده ، أو الفلسفة وحدها . ولكنها تسلم ويطرد مسارها الصحيح بمجموع هؤلاء ...

اننى حين انشد النفاذ الى عمق الفن فانى فى الحقيقة أطمـــع أن ننفذ الى الاعماق فى كل شىء .. ومن هنا أرفض أسلوب المدرسة المصرية والعربية فى التلقين .. فقد يحجب المعلم ، المعنى البعيد ويقف حائلا دونه .. ومن يدرى فقد يقطع وجود المعلم ، الاتصال بين المعنى والمتذوق ...

يكفى المعـــلم أن يعطى المفتـــاح فحسب ... حتى الصـــورة الفوتوغرافية محكومة برؤية المصور نفسه ...

إن فن التذوق ، كالحب .

هل يدرس الحب ؟

الدين والفن في مفهوم مصر

ان دعوة الدين الى الاخاء يحققها الفن حين يمنح الناس كما يقول (سيدنى فنكلشتين) وعيا بالنسيج الاعرض للمجتمع الذى يعدون هم جزءا منه ، ويبين لهم كيف أن مشكلاتهم انما يشاركهم فيها الآخرون مشاركة تتم على مستوى عريض ، ومن ثم فانه يخلق شعورا بالقربى فيما بين الناس الذين لهم حياة ومشكلات مشتركة .

الاخاء الانسانى الذى يسعى الدين جاهدا الى توفيره فى المجتمعات الانسانية عبر عنه الفن أجمل تعبير من خلال بتهوفن حين كان يصغى بقوة محاولا اختراق حجب الصمم الى سيمفونيته التاسعة التى ترتفع فيها أصوات المنشدين مترنمة بنشيده للنصر ، مغدقا على الدنيا فيوضا من السعادة .وهو المتالم الذى ثكل أعز حاسة عنده ... انه فى هذا الموقف أقرب الى قلب الانسانية من قديس .

ان الفن وظائف بيولوجية واجتماعية لا يمكن التقليل من اهميتها ، كما يقول هربرت ريد فى تعريفه للفن حتى (نيتشه) ، وهو أحد ثلاثة جنى رأيهم على الفن — الآخران هما فرويد وماركس — جاء

عليه وقت كان يلوذ فيه بموسيقى فاجنر ، وهنا ندرك قول توماس مونرو عن الموسيقى فى كتاب (التطور فى الفنون) انها لا تقل أهمية عن الفكر فانها بما تقترن به من الايماءات وتعبيرات الوجه تصبح وسيلة للتعاطف الذى تفيض به نفوس المتحضرين أكثر مما تفيض به نفوس المتبربرين .

لقد ذكر الأستاذ العقاد فى (يومياته) ان أفلاطون كان يقول : (ان تغيير اغانى أمة يضارع تغيير الشرائع فيها) ..

ولعل من خير ما جاءت به الثورة الفرنسية هو اصرارها ،كما يقـول : Franco Benoit فيما نقل عنـه ارنولـد هاوزر فى (الفن والمجتمع عبر التاريخ) اصرارها على (الا يكون الفن مجرد زخرف يزين به البناء الاجتماعى) بل «جزء من دعائم هذا البناء»...

وهذه الصلة بين الفرد والدين ادركتها مصر بما فى داخلها من احساس عميق بالمقدس والجميل فادخلـت الموسـيقى المعبـد واشتركت الملكة نفرتارى نفسها بآلة السيستروم .. وعن المعبد نبعت الموسيقى الكنائسية . وفى الاسلام موسقت مصر الدين حين استن متقدمو القراء فى مصر تقليدا (الا يبدأون قراءاتهـم الا من البياتى وبه دائما يختمون) .

وبعد القرآن يأتى الآذان وقد أوضـح عمـل مصر فيه الشيخ البشرى فى (قطوفه) .

يقول الدكتور بشر فارس فى كتابه النافـد (سر الزخرفـة الاسلامية) .

(على المؤمن أن يتوجه بكيانه الى الله ، فالله مصـدر جـذبه وغاية سعيه فى آن واحد . . وفى القـرآن (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) البقرة ١١٥ .. وفيه أيضا (ذلك خير

الذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون) هذان معنيان لا يفتأ المؤمن بالاسلام يرددهما ....

من هنا لدونة الزخرفة الاسلامية وقد آل بها المطاف بين يدى الاسلام : أن عتقت من الواقعية الهلينية وخلصت من الصلابة الفارسية . فلا مبتدأ لها ولا منتهى ، ومما يجوز لها أن تطمع فى أحد منهما ، لانها تسعى وراء الله الذى (هو الأول والآخر) الحديد ٣ ... منه تبتدىء الاسباب واليه تنتهى المسببات .

وبفضل اللدونة نرى « الوحدة » فى الزخرفة الاسلامية دوارة تارة وتارة متوترة ... وهى ، فى أكثر الحال ، تلتوى وقلما يحركها البهر ... ووجهتها ، أبدا ، ما لا حد له ، فهى ماضية بلا ملل ... وهيهات أن تبلغ ما تهدف اليه ، فشأنها شأن ايقاع يترنح منقادا للصبر)) .

وان كنت أرى مع الدكتور زكى حسن أن الوحدة فى الزخرفة الاسلامية تتوقف أحيانا عن المضى بعد أن زايلها الشعور بالخوف من الفراغ متأثرة بالفن الصينى .

ولعل الدكتور بشر فارس أحس بصعوبة التركيز فجنح الى التطبيق قائلا : (ان التفاف العرق بوروده وأوراقه ، وكذلك انبساط السطوح يقفان فجأة أحيانا ، أو يتكسران حتما على الحواجز ، عند أطراف الساحة التى تستقبل المنمق . أترى يرضى الالتفاف والانبساط بهذه الهزيمة ؟ كلا ! أما العرق فلا تختتم مدامه . وأما السطح فلا تلتحم أضلاعه ... بل كل يصل الى المدى المقدر له وهو فى فوران نشاطه : اما عند رأس انثناءه ، واما فى قلب اشتباكة ، كأنما يتأهب لاستئناف الاندفاع ، فيدعوك الى أن تثب وراءه فى الخلاء ، لعلك ، من طريق التخيل تلاحق جولانا صدمته قسوة الواقع .... تلك نشوة مشت فى الخط منبثة الى افق الغيب المستغلق دون المؤمن مشغلة دائمة لذوقه)) .

ان الفن الاسلامى رؤيته رؤية بالاشواق وهو يمتاز بالتنـــوع والوحدة معا . يقول م.س. ديماند فى كتابه «الفنون الاسلامية».

(يمتاز الفن الاسلامى بتنوع عظيم أصاب نواحيــه واشـــكاله وصناعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله ، وهذا التنوع يلغ من الشدة جدا يصعب فيه كثيرا أن نجد فيه تحفتين متمـــاثلتين ومـــع ذلك يمتاز بوحدته).

والواحـــد هـــو الأصــــل فى العـــدد . . وفى الكـــون . . والتنوع هو الظاهرة الكبرى فى الطبيعة ... والفن الاســـلامى لم يعط الصورة انسانا أو شجرا أو نهرا « كينونة » لأنه اعتبرها ظلالا عابرة فى طريق تطلعه الدائم الى ما وراء الطبيعة. الى الله الواحد. وان كان الفنانون المسلمون قد أخذوا عن الصين رسوم الطير يسبح فى الهواء فيكسب الصورة حياة وحركة كما يقـــول الدكتور زكى حسن فى كتابه (الصين وفنون الاسلام) وحين تمثل الفن الاسلامى هذا المعنى خرج خلاصة مقطرة للحيوية والحياة...

وهنا يتعانق الدين مع الحياة فى ود موصول حين نفهم عنـــه فى استشفاف واع معانى كلماته الجامعة .فنتجاوز بالتوحيد النطق الببغاوى بالشهادتين الى توحيد الذات فلا انفصام ولا تشقق ، وتوحيد المجتمع فيبرأ من الشيع والتطاحن ، وتوحيد العالم نحو القيمة الكبرى أى الله .

الدين قيمة كبرى ... والفن الاصيل موضوعه : القيمة ... بينما العلم الحديث يفسر القيمة لا يتغياها ... القيمة عند العلم الحديث خارج الموضوع ... وهى عند الفن قبلة يتجه اليها كما يتجه عباد الشمس نحو النور ...

العلم الحديث آلته الذهن وله حدود الذهن وهو بهذه المحدودية لا يمكن أن يحيط بالحياة أو الدين أو الفن .ولعل قوته فى معرفة محدوديته ..... بينما الفن أقرب الى التصوف فيه « الحـــال » عطاء الله ، و « المقام » درجة يصل اليها السعيد بالمجاهدة ...

والقلب بين الحال والمقام يترقى بالصفاء من مقام الى مقام حتى يصل الى الملأ الاعلى ...

ان مشكلة مصر اليوم انها ينقصها « الأســاتذة » الحقيقيون فى كل مجال من هذه المجالات ... ولهــذا نقص الوعى من ضــبابية الادراك ... ادراك معنى « العلــم » و « التكنولوجيــا » ... و « الفن » و « الدين » و الانســان » . ولعلنا بإدراك (نقص الادراك) نكون قد اقتربنا من الهدف . فان ٩٠٪ من الحــل فى ادراك المشكل ...

ليس اعتباطا أن تنبــع الأديان من الشرق وتنشــأ فيــه لأن « التوحيد » فيها يوافق حب « التكامل » الماثل فى طبيعة الشرق . لمــاذا لم تتفوق الملحمة والقصة عندنا كما هو الحال فى الغرب ، على الرغم من اننا نحب الحكايات ؟ ذلك لأن طبيعة تفكيرنا التكامل لا التصارع الذى هو أساس الدراما ... الملحمة مجلى بطــولات يبرزها الصراع الثنائى ولكن مصر حتى حين تتصارع تفىء سريعا الى الوحدة . فحروب الجنوب والشمال انتهت بوحدة الوادى ولبس « مينا » تاج الوجهين .

وصراع أوزوريس وسيت انتهى الى تحكيم القضاء ونصب ميزان العدل . وهذا الادراك العميق للامور هو فى صميمه بطولة فكرية .

وحين جاء الاسلام حدث فى القرن الســابع الهجرى أن كثرت الفرق والنحل واشتد الخلاف بينها . فأتفق رأى العلماء على العالم المصرى الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة ..

واذا لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصريا فقط فى هذا الشاهد ، فانا لنجد كما يقول الأستاذ الخولى (هذا الميل المصرى للتوفيق بل الدعوة اليه يتجه اليها صوفى مصرى بلدى السبكى هو الشعرانى . وهو أصيل فى الفقه فوق كونه صوفيا من الطراز الأول . وقــد

حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحـــاولته التوفيق بين أهـــل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال . ويقول الباحثون الغربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا) .

أن ملحمة مصر تتمثل فى الرائعـــات الفنيـــة : « الهرم » .. « أبو الهول » .. « الكرنك » « جامع السـلطان حسن » .. «تائية ابن القارض» . أما «الالياذة و «الأوديسة» ففى اليونان لأن عندهم « الصراع » حتى بين آلهة الأولمبياد ... حتى القدر يقابل الانسان ... فالانسان والقدر يتصارعان ...

أما الاسلام فانه بآيته (قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) ١٦٢ ك الانعام ٦

الاسلام بآيته هذه فيه اتجاه الى الله وتسليم سلامى ... الله الذى هو قمة القيمة ...

ولا نحاج هنا بالمنتصر الذى قتـــل أباه المتوكـــل ، ومأســـاة (المســـتعين بالله) و « ابن المعتـــز » .. فهؤلاء تحت جلودهـــم جاهليـــة ... جاهليتهم الأولى التى كانت تكمن وراء الخـــلافة وأبهتها ...

انهم دون مستوى الاسلام ...

والاسلام المسالم المصفى طرحه محمد فى عصره. ولكنه بما هو دين الفطرة السليمة موجود قبل محمد فالأنبيـــاء قبله مســـلمون (فان حاجوك أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ٤٤ النمل ٢٧ .

(يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) ٤٤ م المائدة .

وابراهيم (قال له ربه اسلم قال أسلمت لرب العالمين). الاسلام دين الفطرة السليمة . دين العقل الحر والانسانية الكاملة ... فحى

ابن يقظان اهتدى الى الاسلام بلا نصوص أو هكـذا يـرى ابن طفيل ...

الدين الحقيقى أكبر كثيرا من (الحرفية) حرفيـة النصـوص والطقوس التى نهوى الوقوف عند ظاهرها دون أن نكلف أنفسنا مشقة الغوص فيها واستقرائها ...
ان أعدى أعدائنا اليوم هو السطحية ... اننا نطالب باحترام المسرح ونتأذى من وجود اللب داخله ، وثقافتنا قشور وحـديثنا قزقزة ... فلم نعد نكلف أنفسنا النفاذ الى الأعماق التى انشغلنا عنها بالثرثرة والاستطراد يشيع فى كلامنـا بل وفى تخطيط مدننـا خاصة فى العصر الوسيط . فأنت لا تكاد تأخذ فى السير حتى ينعطف بك الشارع الى ممرات جانبية وأزقة تفضى بعد حين الى الطريق الرئيسى ثم يتفرع مرة أخرى وهكذا ... ويتمثل هـذا فى طراز العمارة الخاصة بالمسـاكن التى يضـمنها أصحابهـا دهـاليز و (مسروقة) الخ .
ان الانجليز يسمون ظاهرة الاستطراد عندنا :
The Story of the Merchant
فاننا لانكاد نشرع ، فى رأيهم ، فى حكاية التاجر حتى نسـتطرد الى موضوعات وموضوعات ثم نعود الى حكاية التاجر من جديد . وهكذا فلا الحكاية تنتهى ولا استطرادنا يكف ...

نحن نتكلم كثيرا لأننا لا نعرف على وجه التحديد ماذا نريد أن نقول كما يقول أمرسون
He did not know what to say, so he cursed.
ما أحوجنا الى القصد فى القول والعمق فى التفكير والانفتـاح فى الايمان لنحب فى صدق : الـدين والفن والحب ... فنتعاطف ونتواد فلا يعد بأسنا بيننا شديدا يحسبنا الناس جميعا وقلوبنـا شتى ... ويوم تتحقق وحدتنا يتحقق بهـا ومعهـا المعنى الكبير للدين والفن ، ومفهوم مصر لهما .

حين تحرر المصرى من الخوف
أبدع الحضارة

اذا أردنا كتابة التاريخ لكى نعيد بناء الشخصية المصرية علينا أن نراجع مفاهيمنا للمبادىء التى تقوم عليها الأوطان وفى مقدمة هذه المبادىء **((التحرر من الخوف))** أن J. A. Wilson يعزو ازدهار الحضارة المصرية الى **تحرر المصرى القديم من الخوف وايمانه العميق بوجود رب يحميه** مما أكسبه ثقة فى نفسه فجرت فيه قوى الابداع والخلق . يقول ويلسون (قد تكون الحضارة المصرية حصيلة الموقع الجغرافى والأرض السمراء الخصبة المستدفئة بشمس أفريقيا . ولكن السبب الاكبر وراء هذه الحضارة ، عقيدة المصرى القديم بأن مصر يحكمها اله هو ابن اله الشمس الذى يمنح مصر الخلود فمم يخاف)

انه اذن الايمان والطمأنينة والثقة .

وهنا مفتاح من مفاتيح الشخصية المصرية يجب أن نبحث عنه فيما ضاع .

لا يمكن أن نعيد بناء الشخصية المصرية الا اذا

خلقنا أولا من أنفسنا مجتمعا ناضجامتحضرا يرعى الحق والجمال والخير ... مجتمعا كل شيء فيه محسوب فلا نغرق فى المدح اذا رضينا أو رهبنا ولا نسرف فى الذم اذا عادينا أو غضبنا.. مجتمعا لايداجى ولا يصانع بل يؤمن فيه كل فرد حاكما أو محكوما بأهمية كل فرد ، وحرية الرأى ، والعمل ، والتسامح ، واتخاذ سبيل الاقناع بدلا من القوة ، والحكمة ... تلك الصفات التى يعدها وايتهيد Alfred North White head من مستلزمات الحضارة .

ومن المبادىء الرئيسية ((**الوطنية**)) وهى كلمة جامعة تتضاءل عندنا على كثير من الشفاه حتى تغدو هتافا أجوف بلا مضمون .. وفى رايى أن الهتاف وطنية البسطاء .. ومصر لا تحب الهتاف لانها شبعت منه .. والصادقون فى حبها يعملون فى صمت ويشكلون حبهم انجازات ، تضيف اليها ... وحضارة مصر اضافة الذين أحبوها فترجموا حبهم الى عمل دائب ..

فمصر اسم شرف لا يكتسب بالولادة ولكن بالعمل... بالسلوك .. بادراك القيمة .

ومصر فى الضمير العالمى قيمة نفيسة بما هى مجموعة قيم حضارية ومنجزات حضارية .

الوطنية اذن عمل .. ورع وطنى .. تصوف وطنى .. وبهذا تغدو الوطنية ، قيمة .. قيمة انسانية .

وطنية أن نأخذ ما عند الغيرونضيف اليه من ذاتنا لا أن نبهر بكل ما يأتى به الغرب .. اننا لو تأملنا قليلا نجد الغرب عبارة عن تكتيك + فوضى فى القيمة ... والأوربى يحاول تبرير الموقف المعاش حتى يستطيع أن ينام .... انه يهدم القيم فى أنحاء العالم بدعوى أن التقدم انما هو التقدم العلمى المادى ... وغير هذا مفهوم العلم فى مصر ... لقد اشتق اسم العلم من اسمها ، «كيما»

فالكيمياء هى العلم الذى يحول الخسيس الى النفيس حتى ليرى (يونج) فيها ، اشارة ... فتحويل العناصر رمز الى تحويل النفس ، ولأمر ما سمى الغزالى كتابه (كيمياء السعادة) .

ومن هنا ، أتخذ أحد المصريين المحدثين الكيمياء فلسفة وطنيته فاهتم بها درسا وعملا ، تعبيرا عن مصرية واصالة ...

وهكذا مصر .. العلماء والفنانون يخدمونها .. (والهتافون) يدوشونها ويزعجونها .

ان المادة مرآة الروح اذا عرف الانسان كيف يستشف المعنى من وراء المادة .. فنحن لا نهون من التقدم المادى الذى يزهو به الغرب . فالمادة فى ذاتها ليست رذيلة والشخص السيء ليس المادى ، ولكنه القاصر عن تحرير المادة وكثافتها ، والخروج بها الى شفافية المعنى . وهذا هو ما يفتقده الغرب ...

وطنية أن نعرف عيوبنا فمعرفة النقص خطوة كبيرة نحو الكمال ولكن بلا مبالغة . فمصر بلد الأساسيات جغرافيا وحضاريا وفنيا. ولكن البعض يغفل عن المنبع المتدفق بالخير لينظر الى البالوعة التى تتجمع فيها الشوائب .

وطنية أن نعيش العصر ونفهم ما جاء به من نظريات فى العلم والفن ولكن دون انبهار يفقدنا أنفسنا .. ان الكثير مما يستهوينا قد يكون فى تراثنا ما يعادله أو مايفوقه لو اننانعرف ما عندنا

ان التكعيبية والسريالية القائمة على التجريد وتجاوز الشكل بل تجاوز المنطق والتطويح الى ما وراء العقل ، يتفوق عليها الفن المصرى القائم على نقاء الشكل مع الاحتفاظ باللمحات الانسانية.. حقا كثيرا ما يتجاوز الفن المصرى الشكل ولكن الى الاسطورة بشاعريتها وغناها .

ان الصعلوك ليس فقط المشرد الضائع وانما **الصعلوك هو المبتور من جذوره الثقافية** . يقول كاتب انجليزى (العرف بديل العبقرية) .

ان من يتعرى من الغطاء الاجتماعى المنسوج من قيم أمته وحكمتها وتجاربها ، انسان هش يتيم معنويا وان حسب نفسه متحررا حرا ...

أنا لا أطالب **بالمثالية** ولكن **بالمثال** .. أن تنمو من الجذور ثم نتفرع كما نشاء .

ولأمر ما يعبر أولاد البلد عن طحن انسان أو سحقه بقولهم .. ((**يعدمه العافية**)) . ان التربية الحقيقية ... غرس التاريخ فى النشء تعطى العافية .. القوة .. الأمل .. الحلم ... الارهاصات أى همس الوجدان .

ان أزمة الانسان المعاصر ان وجدانه لا يضاهى تقدمه التكنولوجى فملك الآلة ولم يملك السلوك وحسن الاستعمال . انسان العصر الحاضر سباق مدنيا . فقراء هذا العصر يستضيئون بالكهرباء وهو ما لم يتيسر ليوليوس قيصر ولكنه معنويا ، معدم لا يعرف كيف يعيش ، كيف يحب .. كيف يكره ليس عنده (فن الحياة) اللهم الا اذا كان عبقريا .

انسان العصر محروم من الرعاية المعنوية ثقافته متجولة كبضاعة الباعة المتجولين .. ثقافة جرائد وأفلام مسطحة .

ولأمر ما تغير وزارة الثقافة عندنا اسمها بين حين وآخر فهى تارة وزارة الاعلام وطورا وزارة الارشاد وحينا وزارة الثقافة لاننا نحتفل بالأسماء لا بالمضمون ... لقد عمل الانسان اللغة فلا يدع اللغة تشكله ... لو كان لوزارة الثقافة هدف محدد لما

غيرت اسمها مرات .. لو تعمقت مضمون كلمــة (مصر) وهو حضارة + مسيحية + اسلام + حرية ... وهــذه الحرية ، اى الخط الرابع ، تستقطب هذا كله ...

لو عرفت وزارة الثقافة هذا المضمون لاتخــذت منه شــعارا وجعلته محورا لها وهدفا ....

ان الحرية انتفاء للآلية ونفى للاضطرار يتحقق هذا المعنى فى الانسـان بل الجماد فالخط المستقيم نقطة متحركة فى اتجاه واحــد ففيه معنى الآلية أما الخط المتموج فهو أكثر حرية ولكن الجمــال فيه رتيب فيه بعض آلية داخل حريته .. وتزيد الحرية باختــلاف الموجه بين ارتفاع وانخفاض .

لقد كان فى الفن الفرعونى خطوط مستقيمة ولكن الى جانبهــا خطوط اخرى تتحرك فى حرية تامة وهى بانطلاقها تؤكــد ضرورة الخطوط المستقيمة ليتوازن البناء الفنى كالأعمدة فى البناء الهندسى . حتى (العقــد) المغرم به الفنــان المصرى حتى ليوفره لصــوره ونقوشه كلها ... هذا العقد المستدير رد على دائرة الرأس يدور معه الفكر ليصعد الى الرأس من جديد .

كان عند الفنان المصرى تفتح وانفتاح وانشراح وتمهل فى التقبل فاذا رسم أحس احساسا طبيعيا موهوبا بالنسب فيخرج الأثر الفنى **وكانه منظوم فى بحــور رياضية** فهو كشاعر موهوب يجيــد النظم ولو لم يكن يعرف العروض .

وحين نسأل السؤال التقليدى هل الانسان مســير أم مخير فان معنى مسير ضد الحرية .. **انمــا الحر هو المخير** . مثل هــذا الانسان اذا فعل فقد اختــار .... ان التصــميم هو الوضــع باختيار ...

الحرية نمو على مستوى الفرد والمجموع .. ان عز الانســان

الأول اعتمد على ذاكرته وقد بدأ مرحلة التحضر عندما بدأ يحرر رجليه الأماميتين أى يديه ... ولما تفرغت اليدان وبدأت تعملان فى حرية بدأ المخ ينمو ... **والثقافة نمو النفس المتحررة من الخوف والعقد** بحيث يكون لديها من الادراكات والمنجزات والطرح ما يمكن أن يتاح للنفس الانسانية الراقية .

ومن الحرية بل من الوطنيـــة أن نحب الحرية لغيرنا ... ان وطنية المستعمرين (أنانية قومية) ... لهم الغنى والديمقراطية والحرية...وللشعوب المغلوبة الفقر والاستعباد والذل...ولا يستحون بعد هذا أن يتشدقوا بحقوق الفرد وحرية الرأى واحترام انسانية الانسان ــ وهم يعنون الانســـان الأبيض بالطبـــع ــ أما احترام انسانية الشعوب فموضوع آخر .

قتل امرىء فى غابة * جريمـــة لا تغتفر
وقتل شســعب آمن * مسألة فيها نظر

وطنية أن نحترم أوطان الآخرين كما نحترم وطننا ... لقـــد دعا جمال الدين الأفغانى الى الحرية فى غير وطنه ، وثار توم بين على الاستعباد فى كل مكان حتى لقد ألب الأمريكيين على الاستعمار البريطانى ، وهو الانجليزى مولدا وهوية لانه كما يقول هلد جارد هوثورن :

(الدنيا وطنه والحرية رايته) .

وما دمنا نحب الحرية للآخرين ونحترم أوطانهم فلا يستكثر علينا احد ولا ينكر علينا احد أن نعلى راية (المصرية) دون أن يتعارض هذا مع القومية العربية . فالعرب فى سائر بــلادهم ينتمون أولا الى الوطن الأم ثم ينتسبون الى العروبة بحكم الدين واللغة ومسار التاريخ فى الأربعة عشر قرنا الأخيرة .

ونحن فى مصر لا نطلب أكثر من هذا لا سيما **واننا نحمل اسما عرفته الدنيا قبل الديانات واللغات والقوميات فنحن مصريون أولا ونحن مسيحيون ونحن مسلمون ونحن عربيو اللســان والهـدف والمصير ..**

ان الأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه الكبير عن (القومية العربية) يسميها **« رابطة »** ونحن لا ننكر هذه الرابطة ، ولا نستطيع .. وليس فى مصلحتنا ان استطعنا ولكن « الرابطة » مهما عزت ، لا تبلغ الأصل المرتبط والمربوط بل ان وجودها رهن بوجوده .

انها لمــاساة ان تحتاج الحقائق الثابتة الى اثبات .

من هنا ندعو الى اعادة قراءة التاريخ حفاظا على الاصــل ، واتخاذه منطلقا للتجديد والخلق حتى تكون لنا **شخصية متميزة** ثم نتمسك بها .

لقد أخذت اليابان بأسباب العلم الحديث بل أضافت الى علوم العصر ، ولكنها تمسكت بأسلوبها فى الحياة ونظامها فى العيش .

انى أرى الهنود فى مصر ورايتهم فى بلاد أخرى عربية وأوربية فلم تخطئهم العين بزيهم الخاص مهما تطوحت الموضة حولهم وفى عقر دارها .

ان الانسان يولد فى العصر الحجرى ، والتربية هى التى تصل به الى العصر الحديث .. فى ادراك القيمة لا فى ارتداء الموضــة فان من يرتدى الموضة فحسب لا يزيد على شماعة خشبية انمــا المقصود رحلة فى النفس .. معاناة حقيقية ..

الشخصية قمة الوجود الانسانى ... **تكامــل الكيان البشرى نحو قيمة جديدة** وهى بالنسبة للأمم **خلق حضارى** كالذى فعلتــه مصر والهند والصين فى العالم القديم .

وهى بهذا **ولادة ثانية** والقيمة ثراء للذات واثراء .

فرق بين (الشخصية) Personality وبين الفردية

ووزارة الداخلية حين تعمل للمجرم (فيش وتشبيه) **وتسمى** هذا تحقيق شخصية ليس فى الحقيقة الا تحقيق فردية Individuality

الوطنية وعى بالماضى ومحافظة عليه باتخاذه منطلقا نحو التجديد ... ان القبة هى الترجمة الاسلامية للهرم .

القبة هرم ترفق المصرى المسلم فى بنائه فاستدار الخط بعد صلابة وثبات ...

وكالقبة ، المئذنة ... ان داخل كل مئذنة ، مسلة فى الشكل والروح ... المئذنة قدمها على الارض وقلبها معلق بالمحل الارفع كما يقول الغزالى فى الواصلين انها Sermon in Stone

والفنان المصرى الاسلامى كان يجمع الى قوته الموروثة سماحة الدين الجديد ورحمته فانطبع هذا فى فنه حنيات واستدارة فابواب المساجد يزركش المصرى المسلم أعلاهـا وكأنه **يحنن** المستطيل ويعشق الخشب ويستنطق السطح بالنقش والنمنمة ...

كم هى بليغة لغة ابن البلد فى لفظة (يعشق) . الخشب فى مفهومه أرواح تتحاب وتتعانق وتعشق ... ان لغة ابن البلد فى هذه (الحتة) ابلغ من التعبير الانجليزى Made with love على جماله ورقته ...

حتى المفاهيم العقائدية تلتقى فيها عصور مصر مع تجديدها ..
فلو تأملنا الآثار المصرية لرأينا (الجناح) يسيطر على خيال المصرى الذى رمز به الى الرحمة .. الى الانطلاق .. الى السيطرة .

ولهذا شاع فى الفن المصرى القديم (القرص المجنح) حبـا فى النور والحرية ، وتحصينا بالشمس والجناح ...

والقرص المجنح يقابل فى الاسلام (بسم الله الرحمن الرحيم) نفس الـ Sentiment وتسرب هذا عبر الاجيال الى نفس ابن البلد فأصبح يقول ويؤمن (بمصر المحروسة) .

وهكذا نرى الحفاظ غير الجمود .. لقد أدرك المصريون برؤية داخلية بصيرة ان الحضارة تحتاج الى زمن .. اسـتمرار ... حفاظ .. ان الحضارة لا تبنى فى جيـل ... هنـا اخترعـوا الكتابة .. العمارة .. التحنيط حفاظا على الجسم من الزوال... وقد لاحظ شبنجلر فى كتابه Decline of the West

ان الهندوكى يحرق الجثة والمصرى يحافظ عليها ويحنطها .

وفى لغتنا اليومية لفظ « قيد » بمعنى اكتب واحصر حتى لا يهرب المعنى .

والفكر المصرى من طبعه الحفاظ فهو يحافظ على قديمه ولو كان Out of Modern لقد ظلوا يقولون ملك الوجهـين حتى بعد أن توحدت مصر وصارت كلا واحدا ... وفى المعبد مقاصـير الشمال تقابلها فى الجانب الآخر ، مقاصير الجنوب انها الوحـدة المصرية يعبر عنها الحجر بالشعر الموزون .

ومع هـذا كله ، **مصر قادرة على التطـور والتكيف** فاعتنقت المسيحية ثم الاسلام وكانت فى هذا تصدر عن طبيعتها لا سيما وان المسيحية والاسلام فيهما منهـا الكثير حتى ليصف جاك مارتان ، الفن الفرعونى بأنه مسيحى النزعة والامل Christian in hope كما أجمع أساتذة الفنون ، شرقيين وغربيين ، الذين رأوا جامع السلطان حسن على انه فن فرعونى ولو انه أثر اسلامى .

اعتنقت مصر المسيحية والاسلام بما فيهما منها . ان مصر حين رمزت الى الخير والعدل والحق بـ (معات) كانت بطريقتها تقول من خلال (معات) : (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) .

لقد اعتبرت المسيحية مصر (الارض المقدسة) لوجود آباء الصحراء فيها ... وعندما جاء الاسلام شربته مصر ونمت به ، ونمته فلم يمح شخصيتها بل **اضاف اليها عمقا جديدا** واضاف لها فضلا جديدا يوم حملت مسئوليته فى **السلم والحرب** فدافعت عنه فى مواقعه الكبرى،وحمت حضارته التى تهددها هولاكو والصليبيون فوق ما عملته له على **ارضها** برصيدها الكبير فى **صناعة الحضارة** مما لا يستوعبه كتاب محدود .

ان مصر قادرة على التكيف والتطور .. **لقد احبت مصر القديمة** الحياة حتى انكرت الموت ولكن مصر المسيحية حين وجب الفداء احبت الموت حتى انكرت الحياة واستشهد فى سبيل المسيحية ابرار ستبقى شهادتهم رمزا للايمان .

فمصر قادرة على التكيف والتطور حتى لتبلغ به اقصى المدى الذى يبدو للظاهر متناقضا وهى فى الحالين تنبع عن اصل واحد هو طبيعتها السمحة القابلة للتطور . انه **التوازن** بين الثبات والحركة ، الذى يقول عنه جوستاف ليون فى حديثه عن « الحضارات الاولى » ، (ان قليلا من الشعوب من نجح فى تحقيقه بل نادرا .. واندر منه من احتفظ به ..)

وتختلف الأديان والعصور والمصرى يجمع فى كيانه هؤلاء كلهم ..

ان دنيا المصرى كمملكة النبات عالم رائع له عقل كلى كما يقول اخوان الصفاء .

مصر خلقت نفسها كاله الشمس الذى خلق نفسه فى الاسطورة المعروفة ...

وجودها شاهد على القيمة وانجازها دليل عليها ... والقيمة الأولى فى تاريخها ، الفن .. الفن المصرى القـديم فهو انجـاز حضارى رائد .

أما القيمة الثـانية فى تاريـخ الشخصـية المصرية فهى الفن الاسلامى .

ان الشخصية المصرية = حضارة + ارتفـاع فوق الأحـداث كارتفاع المآذن فوق الطوابق + وعى بالمقدس بوجود الله ....

مصر القديمة خلقت نفسها حضاريا

ومصر الاسلامية نمت نفسها

هناك خلق وهنا تحقيق نمو .

وميزة حضارة مصر ، **الاستمرار** وفى **تكامل** .

ان الحفاظ الحقيقى تنمية وتكامل .

مصر الاسلامية كانت القلب الرائع والنابض للطائر الذى يمتد جناحاه من جنوب الصين الى جنوب أسبانيا ..

ان رؤية مصر ، تختلف باختلاف الأفراد . فمن همه الطعـام والشراب **يرى مصر** ، **الوادى**.. ومن يبحث عن : **المعنى فى مصر** يخرج الى **الصـحراء** .. أما **مصر ((الطمـوح))** فهى ما بعـد الصحراء حين تفرد جناحيها ويمتد نشاطها فيصـل الى الشـام شمالا ، والسودان جنوبا ، وليبيا غربا ، والبحر الأحمر شرقا ..

مصر هذه لعبت بالحجر والـذهب .. صـاغت الحجر وثقفته بالنقش واللون ، وشكلت الذهب وجملته بالنمنة والفن .

كم وشوشت مصر الحجر واترعته أسرارا ومشاعر فكان عملها لون من التطعيم الذى نحسبه قاصرا على الصدف

ان القاهرة أحظى عواصم العالم معماريا بأهراماتها ومعابدها وكنائسها ومساجدها وفنونها التشكيلية .. وهى من الناحية الحضارية أروع العواصم .

لقد عرف (جوته) العمارة بأنها موسيقى فى الحجر ... ان عاصمتنا — من هذه الناحية — لحن رائع .

... ...

هذه هى شخصية مصر التى دخلت بها التاريخ ووضعت بصمتها عليه شخصيتها التى هى **وجود متميز معدود ومحسوب وله قيم وثقافة بعينها ...**

شخصية مصر كالعمود فى العمارة الاسلامية فاستقامة العمود يترجم عن الخط الصابر الصامد ثم يلين فى انحناءة يستجمع بها نفسه ويستمد العزم فى طريقه الى تمه .

ولا يرمز الى شخصية مصر كالنيل والمقطم انها حوار بين الصخر والماء من يلاينها تعذب وترق كماء النيل ومن يتحداها تصلب كالصخر ... صخر المقطم . هكذا خلقت ... انها لقاء خلاق وحوار آلاق بين الصخر والماء ... حوار يدور فى النور .

ولا ينال من **شخص** مصر او **شخصيتها** اخذها بمنطق الأحداث ... لقد تكلمت مصر العربية لأن الاسلام كان ينطلق فى المنطقة من « كلية » معينة ... كان (وحدة) تريد أن تأخذ دورها فى المنطقة .. وفى .. التاريخ .. ومصر **قلب هذه المنطقة بلا ادعاء او تواضع** ... قلب المنطقة فى العصور القديمة ، وفى المسيحية ... وما كان للقلب أن يغير مكانه فى الاسلام ... لقد أخذت مصر دوراً منذ عهد عثمان ... ومن لا يغيب عن المسرح لا بد أن يتكلم لغة الرواية التى تدور على خشبته .

لقد تمسكت فارس بلغتها بعد الاسلام وما ذلك الا لانها بموقعها بعيدة عن الأحداث وعن العيون الا أن تكون مصدر فتنة أو مؤامرة.

وهـذه (الكلية) فى الحضـارات نادى بهـا أخيرا فى العصر الحديث « سمطس » ... **فمصر حين تكلمت العربية لم يحـدث فيها (انقطاعية) فى حضـارتها** كما يقول الأستاذ الدكتور جمـال حمدان فى كتابه العظيم (شخصية مصر) **مؤيـدا رأى توينبى فى** المصريين المحدثين ومغايرتهم للقدماء .

ان لغة الحروف ليست كل الصلة بالمـاضى .

هناك لغة التشكيل التى امتدت عبر العصور موحدة الاسلوب والنبض والأداء فى المعبد والكنيسة والمسجد ... فى النقش والحفر والنسيج والنجارة . بل عادات ونظام الحياة .

اليس هذا كله امتدادا واستمرارا ؟

هذه هى مصر وليست كما يقول رينان فيما رواه عنه الدكتور حسين فوزى،فى حديث له عن أحياء البحر الأحمر والبحر الابيض، ومضمونه ان مصر حينما يتعين عليها أن تلعب دورا يتصل بالنفع الانسانى العام تكون الضحية الدائمة ... حيـادها لنفع غيرها والروح الوطنى مقضى عليه فيها وسوف تحكم مصر بمجموعة دول متحضرة وبالاستغلال العلمى المنظم للعالم سوف توجه الانظـار الطموح الى وداى النيل !!

لا رد لنا على رينان فالعالم مملوء بعقول رينانية . كان الغزالى يقول : ان القلم على روعته ، أروع منه اليد التى تمسك به ... وأروع منه الشخص المحرك الذى يملى عليه ... وانطـلاقا من هذا المنطق الحكيم للامام ، نقـول ان أروع ما شـيدته مصر :

« **الشـــخصية المصرية** » . التى أستوعبت النصر والهزيمـــة .. والازدهار والانحلال والصلابة والتســـيب ، والعزة والقهر ... **عرفت** مصر هذا كله ... **واستقطبت** مصر هذا كله **وتحدت** مصر هـــذا كله ... **وتخطت** مصر هـــذا كله .. **ولم تكف عن البنـــاء والتشييد والعمل** ...

العمل لا فى داخل حـــدودها فحســـب **بل خارجها** اذا كانت شخصيتها فى كل العصور تفرض عليها الامتداد فى اتجاهين :

* اتجاه رأسى أى الى أفريقيا والجنوب .
* اتجاه أفقى أى الى آسيا شرقا وليبيا غربا .

ومن هنا يجب أن تكون دعايتنا فى الوقت نفسه دعوة لا قضية ... ان من يكتف باعلان انه مظلوم ، متسول انصاف لكن قيمتنا فى استيعاب قيمتنا الحضارية .. فى فهم دورنا المعطاء .. وكنسه العطاء الجديد الذى سيضيفه .

واستيعاب المـــاضى تحضير للعب الدور الجديد فى عملية صعود الى المسرح ثانية .... استيعاب المـــاضى **بوصلة قومية** ترشـــد بها الخطى وتعصمها من الضلال ...

***

كان قدماؤنا يحرصون على **تجليد** المعبـــد أى اقامة سور من الطين حوله حتى لا ترهق رهبته النفس أو تذهب الألفة ، بهـــذه الرهبة . ويبدو ان سور الطين نقلناه نحن حول قلوبنا فلم نعـــد نرى فى الهرم والمعبد الا مكانا للنزهة لا للمعنى .

لقد ولدت مصر معبدا فلا تحولوها الى ملهى ... حرام ‍!!!

وقفة عند الدولة العصرية

فى محاولة كتابة التاريخ من جديد نقف وقفة عند الدولة العصرية التى نتنادى بها ... وهذا النداء يتضمن الاتجاه الى الغرب باعتباره السابق ونحن نريد اللحاق به ... ومن الطبيعى الاخذ بأحسن ما عند الآخرين . ولكن يجب أن نقف وقفة خاصة عند هذا الموضوع . **فان الشباب يعيش فى وهم كبير اسمه أوربا ،** حتى اذا أتيح لهم أن يذهبوا اليها ، وأن يعيشوا فيها ، شهورا وأعواما ، انسلخ البعض عن قومه، ومزق الصراع البعض الآخر. ذلك الصراع الذى صوره الأديب يحى حقى فى قصته (قنديل أم هاشم) .

وغير الشباب لا تزال المجتمعات الشرقية من رواسب الاستعمار عندها (عقدة الخواجة) يقابلها عند رجال الدين المحافظة الشديدة التى تصل عند البعض الى حد التزمت .

وفى صراع الدعوات والشعارات والآراء يعلو صوت الواقعية المادية والعلمية . ولست أرى من وراء هذا الحديث التهوين من قيمة الصناعة أو العلم الذى غزا الفضاء وترك بصمته على القمر .. أبدا ولكننى أريد وسط هذه التيارات الزاخرة ، أن

نتفاعل مع الحياة والحضارة الحديثة فى تماسك يحفظ علينا شخصيتنا المصرية العربية الشرقية حتى لا يجرفها التيار فتضيع ...
ونكون كذلك الغراب الذى تحكى القصة على سبيل الرمز أو الحقيقة ، انه استهواه مشية العصفور وقفزاته الرشيقة ، فأراد أن يقلده بدون تفكير ، فانتهى أمره الى مشية مضحكة ذهبت مثلا ...

كما أن المحافظة التى أعنيها لا تتعارض مع رغبتنا المخلصة فى أن ننمى شخصيتنا ، وأن نطورها ، وأن ننفض عنها غبار القرون والاحداث ...

لقد ظل الادب الانجليزى فترة طويلة من الزمن ، وعلى الاخص فى عصر (بوب) و(دريدن) متأثرا بالادب الفرنسى ، وكان سوينبرن Swinbarne شديد التأثر بالشعر الفرنسى كما كان كارليل Carlyle متأثرا بأدب المانيا .

ولكن تأثر هؤلاء بآداب غيرهم لم يفقد أدبهم قوميته وذاتيته ، بل زادته ثراء وعمقا .

وكان جوته شاعر المانيا العظيم يجيد اللغة الفرنسية الى حد الاتقان — هذا الى اتقانه اليونانية واللاتينية — حتى قيل انه تردد يوما هل يكتب بالالمانية أو الفرنسية ، ثم أخذ يدرس الادب العربى والفارسى . وفى السبعين من عمره طرح ثمرة عظيمة هى كتابه الفريد الذى سماه (ديوان الشرق والغرب) . وترجم القرآن الكريم ، بل لبس العمامة وارتدى القفطان ، وفى أوربا ، تشبها بحافظ الشيرازى الذى كان يحبه ويعجب به . ومع هذا ظل جوته شاعرا المانيا صميما يستلهم الشرق والغرب فى آن .. الصور شرقية والاحساس غربى .. توغل كما يقول أحد الذين ترجموا له ، فى هذا العالم الشرقى دون أن

يفقد شخصيته . فهو يتبع القافلة وهى تسعى على مهل فى الصحراء ، ويسمع صوت البلبل ونغماته الحزينة ، حول الغدران والينابيع ، ويصغى لهذا بانتباه ، بل قرأ ترجمة المعلقات فى الانجليزيةثم حاول هو ترجمتها من تأثره بها وحاول فيما حاول من معطيات الشرق ، الكتابة العربية ليتغنى بالقلم العربى المسنون من القصب فى مقطوعته (القلم) .

كان جوته خير رد وأبلغه على رد يارد كسيلنج الذى قال (الشرق شرق والغرب غرب وهيهات يلتقيان) .

لقد التقى الشرق والغرب بقيمهما فى جوته ... فى فكره وفى سلوكه فى ديوانه الذى يقول فيه :

من حماقة الانسان فى دنياه
أن يتعصب كل منا لما يراه
واذا الاسلام كان معناه التسليم لله
فاننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين .

فاذا أضيف هذا كله الى أدبه وثقافته الغربية ، نشأ من ذلك ازدواج موفق غاية التوفيق ، وكان بمثابة عهد جديد فى الادب الالمانى ، فان الشعراء المعاصرين من الالمان لم يلبثوا ان أخذوا يقتفون أثره ، وانصرفوا عن أناشيد الحرب والقتال ، لينشدوا أغاريد الشرق ، وكان أشدهم تأثرا بجوته ، أو (بديوان الشرق والغرب) الشاعران : ركر وبلاتين .

ومتى ظهر (ديوان الشرق والغرب) ؟ لقد كان هذا ما بين ١٨١٤ — ١٨١٩ فى وقت كانت ألمانيا تتسعر فيه حماسة ووطنية كرد فعل لغزو نابليون لها .

هذه ألمانيا .. أما ايطاليا فان بعض الباحثين الغربيين يلمح

اثر العقيدة الاسلامية فى البعث والآخــرة ، فى قصــيدة دانتى : الكوميديا الالهية .

التقى الشرق والغرب فى الحضارة الحديثة التىيعزوها «وايتهد» الى : اليونان وفلسطين ومصر . من اليونان فلسفة،ومنفلسطين المسيحية ، ومن مصر العلم والصناعة .أوقبل أوربا تجمعهذا كلهفى مدرسة الاسكندرية التىانتقل اليها مركز الثقافة منأثينا ، فمزجته بتراث مصر الدينى والعلمى والصناعى حتى غدت « الهلينية » أى فلسفة اليونان ، « هلنستية » ، بعد أن احتوتها الاسكندرية ، واضافت اليها ، لتؤثر بعد هذا فى الفلســفة الاســلامية ثم فى الحضارة الأوربية .

كما استفاد الغرب فى مطلع نهضــتهم من ايران ومصر والهنــد وما وراء الهنــد واليونان . والواقع كما تقول الدكتــورة سيجريد هــونكة فى كتابهـــا (شــمس الله تشرق على الغرب) ، — (ان التعصب الدينى وعدم التسامح كانا دائما من أعدى أعــداء الشعوب فالعزلة عدو الحيــاة والنمو والتطور . ثم ان تبــادل الثقافة بين الشرق والغرب الى جانب الاحترام المتبادل الى التعاون والتصافى آدى جميع هذا الى تفتق العبقريات . واذا تغاضينا عن بعض حالات التشاحن والبغضاء التى وقعت بين العرب والاوربيين احيانا ، فان تعاون الشرق والغرب سيكون خيرا وبركة للعــالم اجمع)

انى لا أميل الى تقسيم الأمــم الذى ذهب اليــه من الغرب « ليون جوتييه » فى كتابه (تمهيد لدراسة الفلسفة الاسلامية) و « دنكان ماكدونالد » فى كتابه (تطور الفقــه ونظــرية الحكم عند المسلمين) ... ومن الشرق ، « الشهرستانى » .

ان الطبيعة البشرية واحدة فى عمومها على الاقل ... واذا كان الشرق بحكم حضاراته القديمة ، يتعامل مع القدم والقيم بطبعــه

وطبيعته ، فان الغرب بعقليته التى تهوى التحليل والتعليل يتعامل مع المحسوسات ليصل عن طريق المقدمات الى النتائج ...

الشرق كما يقول الدكتور زكى نجيب محمود ، فنان .

والغرب عالم .

والعلم كما نعرف وسيلى .. والفن غايى قيمى ..

وحين أقول هذا ، لا أنفى أن العلم قيمه بما يهــذب من نفس الانسان الى حد تجريدها الى أفق الموضوعية .

وهو غايى بما يحرر الانسان من الجهل .

العلم يهذب ويجرد .. والفن يصفى ويقطر وجــود الانســان لاستخلاص القيمة .

كان عالم الطبيعة « أدنجتون » يقول : المتصــوف والفنـــان لا يقل موضوعية فى تعريف الحقيقة عن العالم الطبيعى .. كمــا كان « اينشتــين » يقول : رؤية النبى والفيلســوف والعــالم ، للحقيقة واحدة من زوايا مختلفة .

وهكذا لا تعني المحافظة التى نحرص عليها أن الغرب شر كله، فنحن أصدقاء الانسان فى كل مكان .. ولكن الانسان المعطاء الذى يعلى الخير والحق والجمال ... فبتهوفن بموسيقاه أنبل وأكرم ، وأســمى ، وأطهر ، وأشرف من تجــار الحروب باســم الحــرية تارة ، وباسم مناهضة الشيوعية تارة ، أخرى ... تلك الخدعة التى كشفها شبابهم نفسه فثار ، عليها فى أوربا وأمريكا ثورة عارمة أعلن عنها فى ملبسه وسلوكه وأسلوب حيــاته . وألف من بينــه الجماعات المختلفة التى تمثل صرخته واحتجــاجه ، كجمــاعات الهيبز وجماعة (الكريشنــا) التى تؤمن بالفلسفــات الشرقيــة القديمة بعامة والهندية بخاصة ، وتدعو الى العودة الى روحانية

الشرق بعد أن أعمت الغرب أطماعه وأفقده حب السيطرة بشريته ، وأورثته مجتمعاته تعاسة مرة على الرغم من الازرار التى يضغط عليها كلما أراد شيئا فيتحقق بسرعة ، كأن كل زر منها خاتم سليمان الذى يعيش أمنية فى خيال الظماء والمحرومين فى اساطيرنا القديمة .

هذه الازرار التى جعلت الانسان الاوربى فى مجتمعه كأنه ترس فى آلة ضخمة يدور معها معطل التفكير ، مسلوب الشعور ، ففقد فى النهاية متعته وحيويته وسعادته ، اذ فقد الاحساس بقيمته وغنائه عندما حلت الآلة محله فى كل شىء ، وحرمته متعة الخلق الكامل .

وحين وجد الشباب الاوربى والامريكى اليوم نفسه ضائعا فى مجتمعه يسير معه فى طريق مسدود ، وقع فريسة للمخدرات والعقاقير هروبا من واقع مرير وحياة عقيمة ، الى حالة من الاستغراق والاحلام آملا أن تعوضه عن الايمان الروحى الذى افتقده فى **ظل الشيوعية والرأسمالية على السواء .**

وقد عقد كتاب (عصفور من الشرق) مقارنات طويلة بين الشرق والغرب فى أكثر من ناحية .. وفى أكثر من اتجاه من اتجاهات التفكير والسلوك لا بأس من تأملها فى هذا الوقت بالذات خاصة الشباب فالكتاب عصارة سنوات فى أوربا حين ذهب اليها مؤلفه **شابا** للدراسة فحديثه هنا ليس انطباع اللحظة العابرة أو الملاحظة السائرة ولكنه حصيلة الدراسة والوعى المتأمل والمقارنة الحساسة .

والاستاذ توفيق الحكيم يستهل كتابه بحديثه مع صديقه الفرنسى (أندريه) عن الفرق بين الشرقى والغربى فى **النظر الى المعبد .**

ان الغربى يدخل الكنيسة كما يقول أندريه كما يدخل القهوة

« هنـــاك محل عام وهنا محـــل عام ... هنـــاك الأرغن وهنـــا (الأوركسترا) » ص ١٥

أما الشرقى فانه يعد نفسه لدخول المعبد كنيســـة أو مســـجدا نهما فى عينه « الســـماء » وليس من الســـــهل كمـــا يقـــول « محسن » ـــ الذى هو الكاتب نفسه ـــ الصعود فى كل لحظة.. انه لمجهود ...

شرق وغرب فى الحب الذى يعلنه الغرب فى أى مكان وأمـــام اى عين حين يغالى به الشرق ويأبى (أن تعرض العواطف هـــذا العرض ، فى الشوارع والطرقات فتبتذل ، وهى التى ينبغى لهـــا ان تحفظ فى الصدور كما تحفظ اللآلىء فى الأصداف) ص ٤٨ ـــ٤٩

الحب فى الغـــرب عملى ككـــل شىء ولكنـــه فى نظر محســـن (احساسات عليا) وخفقة قلب ، ولهفة روح ، وتطلع عين ، وظمأ شوق ، وتمن ورجاء ... ويأس ولقاء أو لا لقاء ... أمل كالنجم يبدو حينا قريبا وهو جد بعيد ... هذا العذاب يراه (محسن) أحلى وأشهى ما فى الحياة .

فرق بين الشرق الذى يؤمن بالأديان وروحانيتهـــا وبين الغرب الذى يؤمن بالعلم والمـــال وحدهما ...

ان ايمان الشرق العميق بالدين يمثله شهداء المسيحية وأصحاب بدر ... وحين تسلم الغرب من الشرق الاديان (ألبســـها أردية موشاة بالذهب ، ووضع على رؤوسها التيجان المرصعة بالمـــاس ، واقبضها صولجانات الجـــاه والجبروت الأرضى ! ان الكنيســـة فى أوربا كانت ـــ فى يوم ما ـــ أعظم مؤسســـة مالية ، وان نظامهـــا الرأسمالى لادق نظام . وأن ثروتها الطائلة لتسند ظهر أقوى البيوت المـــالية ، وتقوضها اذا شاءت فى طرفـــة عين ، فأين ذهبت كلمة المسيح ؟) ص ١٦٥ .

ان أوربا هى الوحيدة التى أعدمت فى يوم علمـاءها حرقـاً ، واتهمتهم بالسحر والجنون ، وخنقت حرية الرأى حتى فى شـئون الأدب والفن ، وجعلت من المسيحية التى تبشر بالمحبة والسلام ، سلاحا للفتك أمام محاكم التفتيش .

عرفت حضارات الشرق (العلم) و (العلم التطبيقى) فالحضارة التى تشيد الأهرام لا يمكن أن تجهل العلوم النظرية والتطبيقية ، ومع ذلك فان ذلك العلم لم يفسد من الرؤوس زجاجات الصـور التى تمثل الحياة الأخرى ...

ان حضـارات الشرق التى عملت للدنيـا والآخرة حضـارات « كاملة » . أما الحضارة الأوربية بكل غرورها فقد قدمت للناس بعض الراحة فى أمور معاشهم ولكنهـا أخرت البشرية وسلبتهـا طبيعتها الحقيقية وشاعريتها وصفاء روحها ... اننا بالقطـارات والطيارات كسبنا السرعة ولكننـا خسرنا ثروة النفس التى تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة ...

* * *

والكتاب يعنى أن انسان الغرب عنده نزعة تحطيمية وهى عدم الايمان بقيمة أى قيمة ...

ان حضارة الغرب تدرس الاشياء لا الانسان ولهذا لم يكتشف الانسان الى اليوم ...

ان مجرد وجود علم النفس دليل على أزمة الانسان المعـاصر المتشقق نفسيا .

تسود الغرب روح نهلستك اى روح عدمية .

واوربا وأمريكا فى الحديث تتابلان التعبير التـاريخى القـديم جريكو رومان .. أوربا تقابل الشق الاول : جـريكو ، وأمريكا

تقابل « رومان » . **فالامريكان** رومان العصر الحديث **قوة وعضلات وغشامة** .... الامريكى أمامه طريق طويل لكى يتحضر .. انه يملك المال والنفوذ ولكنه لا يملك التراث أو الحضارة .. حتى المسيحية التى جاءته من عندنا كانت أكبر منه فلم يهضمها ولم يعرف قيمها العليا **من محبة وسلام** ....

نحن فى الشرق ومصر عندنا قدرة على التكامل تعادل قدرة الانسان الغربى على التجريد وهو عاجز عن التكامل ... عاجز عن الرضا .. الطمأنينة ... السعادة **الداخلية** ...

الغربى عنده علم ووسائل .

ولكن ليس عنده غايات .

ولذلك يجدر بنا عندما نتكلم عن (روح العصر) أن ندرك أن روح العصر هذه لها **بعدان فى الزمان والمكان** فروح العصر فى الغرب عدمية تحطيمية ولكن روح العصر فى الشرق شىء آخر .. تفاؤل وايمان واحساس بالتاريخ وبالقيمة ...

انسان الغرب فى حاجة الى روح وهو ما أراد يونج أن يقوله فى كتابه : Modern man in search for a soul

والكاتب فى (عصفور من الشرق) ينقد النظام الصناعى الذى أوجد النظام الرأسمالى وينقد أسلوب التفتيت فى الصناعة الذى ذهب بمتعة الخلق الكامل وأورث العاملين ملالة التكرار واستشهد بنقد أبناء الحضارة الاوربية أنفسهم لها مثل الكاتب الانجليزى (الدوس هكسلى) الذى يصف حضارة أوربا بأنها كم لا كيف ...

كما نقد الكاتب (الشيوعية) على لسان صديقه الروسى الذى يقطع بأن جنة الفقراء لن تكون على هذه الارض .. وأن المساواة لا يمكن أن تقوم على هذه الأرض ... لقد عرفت أديان

الشرق النفس الانسانية ففتحت لها أبواب السماء التى بشر بهـا انبياء الشرق .. جزاء للصابرين ومن حسنت أعمالهم .

ولكن « الغرب » أراد هو أيضا أن يكون له أنبياؤه ، الذين يعالجون المشكلة على ضوء جديد ، وكان هذا الضوء منبعثا هذه المرة من باطن الارض ، لا آتيا من أعالى السماء ... هو ضوء العلم الحديث ... فجاء « كارل ماركس » ومعه أنجيله الارضى « رأس المـال » وأراد أن يحقق العدل على هذه الارض فقسم « الارض » وحدها بين الناس ونسى (السماء) فماذا حـدث ؟ حدث أن أمسك الناس بعضهم برقاب بعض ، ووقعت المجـزرة بين الطبقات تهافتا على هذه الارض .

وكأنه ألقى تفاحة بين أطفال يتلمظون !

وكأنه هذا الكارل ماركس ألقى قنبلة المـادية والبغضاء واللهفة والعجلة بين الناس ...

أما أنبياء الشرق فقد ألقوا زهرة (الصبر والامل) فى النفوس .

ان روح (المسيحية) كما نبعت فى الشرق : هى المحبة والمثل الاعلى ... وروح (الاسلام) الايمان والنظام .. ومسيحية اليوم فى الغرب هى : (المـاركسية) .. أما اسلام العصر الحديث فى الغرب فهو (النازية) .

تلك هى الديانات التى استطاع الغرب أن يخرجها للناس يوم اراد أن يزاحم الشرق ويخرج للعالم أديانا .

فى كتاب (عصفور من الشرق) روح اشتراكية خيرة فى غير عنف ، عادلة فى غير تعسف أو تخريب . فهو يحلم بالسلام والحب والرخاء للجميع وينفر من رق رأس المـال وتحكمه ...

(ان الغرب يستكشف الارض ، والشرق يستكشف السماء ...
اننا نجد ذلك الذى أسكن الانسانية (قارة جديدة) لكننا لا نرى
مجد ذلك الذى أصعد الانسانية وأسكن الانسانية « السماء) .

ولا يعنى هـذا تفضيل الكاتب الشرق على عـلاته فقـد أحاط
بضعفه حين استسلم للاستعمار كمـا أنه لم يتردد فى الاشـادة
بالغرب كلما وجد موضعا ...

فالمسرح فى الغرب ليس كذلك الذى وصفه عندنا المويلحى فى
حديث عيسى بن هشام ، ولكنه مسرح يخيـم عليه سكون قدسى
كسكون المعابد .

وموسـيقى بيتهوفن ان هى الا (وحى السـماء يتكلم بمختلف
المشاعر العظيمة التى رفعت الانسانية الى هذه المرتبة) . ويؤمن
على كلمة « نيتشة » فيه (كل العواطف البشرية الساميـة فى
السيمفونية الخامسة) .

***

وهناك عصفور من الغرب يجب أن يقرأه الشـباب ليستردوا
ثقتهـم بأمتهـم . أعنى كتاب (شـمس الله تشرق على الغرب)
للدكتورة سيجريد هونكه وهو كتاب عالمى لو لم يكن علمى المنهج
والتفكير والأسـلوب لمـا استقبلته اللغـات والشعوب هـذا
الاستقبال .

ما هى دلالة المظاهرات الصاخبة التى تقوم فى أشد بلاد أوربا
تقدما ورقيا ، ان هذه الظاهرة تعنى افتقاد هذه البلاد للروح ...
لا أعنى أن هذه العبارة تنسحب على كل من فيها ... ان الانصاف
يقتضينا أن نقـول أن طغيان المـادة فى أوربا لم يطمس كل شىء
فيها كما ان الايمان فى الشرق باعتباره مهبـط الاديان السماوية
كلهـا لا يسرى فى كل قلب ولا يلمس كل نفس حتى وان أدت

الفرائض فى ميكانيكية آلية فكم من صائم بيننا ليس له من صيامه الا الجوع والعطش، وكم من قائم ليس له من صلاته الا القيام والقعود .

ان الدين حسن الخلق وأن الاعمال بالنيات وأن أنفع الناس أنفعهم للناس وأن العمل عبادة وأن التفكير فريضة اسلامية لانها فريضة انسانيه وان الانسان أكرم المخلوقات وان احترام العقل الانسانى واجب دينى فهل ندرك هذه المفاهيم ونقدرها حق قدرها ؟ هل نطبقها فى حياتنا على المستوى الفردى والمستوى العام ؟

اننا نبسمل كثيرا ونحوقل ونشيع العبارات الدينية فى حديثنا حتى ليخيل الى من يرانا أن أطرافنا تقطر تقوى ولكننا فى بلاد القبلتين والمسجدين والانبياء والرسالات نجد أن الاعم الاكثر من المستشفيات والملاجىء والمدارس من عمل الحكومات لا الافراد الخيرين .. ان أعظم عمل يقوم به الفرد الغنى منا فى نظر نفسه اذا هزته أريحية أن يبنى مسجدا والمساجد كثيرة والاسلام لم يحصر العبادة بين جدران اربعة .

ولو فتشت فى التاريخ لوجدت ان عصر بناء المساجد الكثيرة هو اشد عصور التاريخ الاسلامى ظلما وعسفا واستبدادا فأكثر مخلفات المماليك فى مصر كانت المساجد ، والمماليك هم من هم ، كما نعرف ، فى الجور والنهب ، والسلب ، واستباحة الأنفس والأموال فبناؤهم المساجد ما هو الا تغطية أو تكفير عن الذنب .

فنحن فى سبيل الاحتفاظ بالنظرة الموضوعية وتوازن الشخصية الفكرية يجب الا نعمم الآراء بغير استثناء والا نطلقها اطلاقا مسطحا يحجب الاعماق ويحجب معها حقائق كثيرة .

نحن نشكو اليوم من أمية العقل ونغفل عن أمية أخرى لا تقل عنها خطرا وهى أمية الشعور .. حين تعمر أوقافنا بالأمس القريب والبعيد بلفتات انسانية مضيئة فهناك وقف على الخدم الذين يكسرون بدون عمد آنية مخدومهم وهناك وقف على الحيوان لانه أعجم لا يبين وكثير غير هذا مما ينم على رهافة الشعور وشفافية النفس .

أقول هذا حتى لا نستنيم الى القول بأن الشرق روح والغرب مادة ففى ذلك الغرب أمثال اللورد نافيلد الذى أنفق الملايين حقيقة لا مجازا على اقامة المستشفيات والملاجىء ووجوه البر الايجابية .

وفى الغرب المادى أمثال العالم الفرنسى جان روستان الذى أثبت فى أبحاثه وجود عالم الروح وأعلن عن وجود قوة خفية تسير الكون .

وفى الغرب المادى متصوفة مثل سويدنبرج يلتقون بالحلاج ورابعة العدوية .. وفى الغرب المادى زهاد كأبى العتاهية يصلح شعرهم الروحى غذاء للنفوس كالشاعر الانجليزى وليم بليك .

وفى الغرب المادى أسر كبيرة وكثيرة تحافظ على أداء الفرائض الدينية محافظة دقيقة بل فى الغرب أسر تنذر أحد ابنائها لله فتجد قسسا ورهبانا ينحدرون من أباء ذوى مراكز مدنية مرموقة .

وأسر أخرى محافظة لا تسمح بالاختلاط المفتوح على مصراعيه ولا تبيح الجلسة أو الرؤية الا فى نطاق الاسرة أو وجود أحد المحارم . وقصة اقتران لويس باستور بزوجته خير شاهد على هذا .

ان ستيفان زفيج فى مذكراته يعزو رقى العلم فى فرنسا الى

الزوجة الفرنسية فهى بما تبذله من ذات نفسها لتوفير الراحة لزوجها انما تمنحه السلام النفسى الذى يعينه على الانتاج والعطاء.

ولكننا ننسى هذا كله أو نتناساه ولا نذكر للمجتمع الغربى الا الخلاعة المحصورة هناك فى مناطق معينة والا نظام التسرى الذى مكن له هناك استحالة الطلاق، حين نغفل أخطاءنا وأحيانا عن عمد بدعوى الوطنية مع أن المرء مرآة اخيه

أليست النظافة فى ديننا مقرونة بالايمان بل هى منه حتى ليخيل الى من يقرأ النصوص والتعاليم أن الدين سداه ولحمته النظافة والحياء فهل نحن حريصون على مظاهر النظافة حتى فى أنفسنا ؟ هل من الحياء فضولنا غير النافع الذى يدس أنفه فى ثقب كل باب وينفق من وقته فى جمع الاخبار الصغيرة ما لو أنفقه فى تحصيل علم أو جنى معرفة لاثرى شخصياتنا فتغير الكثير من أساليبها فى الحياة وتعدل تبعا لهذا التغيير الكثير من مفاهيم مجتمعاتنا وأختفى الكثير من أمراضنا الأجتماعية وتقدمنا خطوات نحو حياة أفضل ؟

ان تقديس العمل واجب ، كما أن تقدير العاملين واجب أيضا فهل نحن وذوو المرتبات منا خاصة يلتزمون الامانة الواجبة فى تأدية أعمالهم ؟ وهل عندنا نظام الحوافز الذى يكافىء الجهود المخلصة ويستحث الجهود التى على الطريق ؟

ان الذين رأوا منا الغرب على الطبيعة وتعمقوا الاشياء والدلالات عرفوا كيف يميزون الحدود الفاصلة بين الخير فيه والشر وعرفوا كيف يأخذون أحسن ما عنده ويضيفونه الى أحسن ما عند الشرق لينصلح أمره ويبصر طريقه فى غير تثبيط أو تضليل من دعاوى استعلاء أو غرور .

ومن هنا قامت نهضة الشرق على أكتاف رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الافغانى ومحمد عبده ثم على أكتاف تلاميذهم من بعدهم .

بل أن الشيخ محمد عبده كان يقول بعد أن عايش الغرب حين كان يحرر (العروة الوثقى) فى باريس :

(أن أهل أوربا هم مسلمو هذا العصر .. أما نحن فكفرته) .

قد نكون معذورين فى نظرتنا الى الغرب بمنظار أسود فان الاستخراب ولا اقول الاستعمار قد لوث فكرتنا عنه وأورثنا البغض الشديد لكل ما هو غربى — وان كان بعضنا يقف فى الطرف الآخر متحمسا لكل ما هو غربى كرد فعل ، أو لون من الجمع بين الشىء ونقيضه ، أو لاعتبارات شتى من نوعية الثقافة أو النشأة. قد نكون معذورين ولكننا فى مقام تقويم أنفسنا وتمييز ذاتيتنا يجب أن نحرر ارادتنا وعقلنا من أسر النظريات الشائعة والاقوال السائدة ونعيد النظر فى كل شىء فى **موضوعية وتجريد علمى نزيه.**

ان ابن البلد عندنا فلسفته أن يتعامل مع الوجود بغير بحث مكتوب .. اسلوب حياة ... وهو يكره التعقيد والتقليد ويجمع هذا قوله لمحدثه اذا تقعر أو تشدق : بلاش فلسفة وهو يعنى بلاش بغبغة ...

ان داخل كل انسان مبدأ للحياة ، قد يولد انسان ويموت دون أن يكتشفه ، ولكن هذا لا يعنى انه غير موجود ... وواجبنا أن نعين النشء على الانبعاث السلوكى على مستوى الافراد ، ونعين الامة على الانبعاث السلوكى على مستوى الجماعة ...

ومن هنا يتحدد موقفنا من حضارة الغرب ... بمعنى اننا نستطيع أن نبتعين بعلوم الغرب وفلسفاته وبالوسائل الحضارية **دون أن نفقد ذاتيتنا** . فرجلهم (يونج) يقول (لايمكن للانسان أن يصير غنيا بالاستجداء) ...

ان التعارض بين الشرق والغرب ، فات وقته كما يقول الاستاذ مريت غالى (لان تعارضا أخطر قد برز فى مقدمة المشاكل العالمية ،

هو الناتج عن مسافة الخلف بين البلاد الشمالية المتقدمة والثرية، والبلاد الجنوبية المتخلفة والفقيرة ، وما التعارض بين شرقنا وغربنا فى حوض المتوسط سوى جزء من ذلك التعـــارض العـــالمى بين الشمال والجنوب ، الذى يتوقف على حله مستقبل الجنس البشرى وانى أوافق تماما على أن ثنائية الشرق والغرب قد فات وقتهـــا ، ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين » .

* * *

نريد أن ننظر الى الحياة نظرة مستقبلية لا تجذبهـــا الى الخلف والتخلف سلاسل الاوهام .. وذلك من أجل مصلحتنـــا نحن قبل الآخرين ...

لنسأل أنفسنا : كيف نعيش ؟

ليس من يعيش كمن يحيا

كيف نعيش ؟ نحن فى طريقنا الى تصحيح وضعنا السياسى من دول الاستعمار ، وتثبيت وجودنا الحضارى بين دول المدنية الحديثة فى حاجة الى تصحيح كثير من الاوضاع الاخرى واعادة تقييم كثير من المفاهيم والعادات والتصرفات فى حياتنا ..

نحن لا نحيا حياتنا كما يحيا الناس .. ان كثيرين منا لا يعرفون معالم بلادنا كأنها خلقت للسياح وحدهم ... وذلك ان الفرد العادى يتبع عقله عينه فهو لا يفكر الى ابعد مما تنظره تلك العين ... انه يؤدى عمله المسائل أمامه فى رتابة مملة لا تجديد فيها ولا ابتكار ولا فن فاذا فرغ منه عاد الى بيته مكدودا من الخمول لا من التعب ، او انحط على كرسى فى مقهى يحتسى الشاى ويلعب الورق ... ولو انتشرت فى مدننا الحدائق العامة والنوادى الخاصة والمسابقات الرياضية والفنية ، والندوات الادبية واللقاءات العلمية لتغيرت نظرتنا الى أوقات الفراغ وتغير أسلوبنا فى العمل أيضا .. ان الأصحاء فى البدن والعقل يجدون ويلعبون ويضحكون ويتمتعون بأطايب الحياة التى أحلها الله .

ان الرياضة لعب .. وركوب الخيل لعب ، والسباحة لعب ،

وان الضحك يجدد شباب القلب ويلون الحياة بلون وردى فينشط الانسان بعده للعمل .. والعمل الجاد اذ وجدت عنده الطاقة له والقدرة عليه ..

ان السفر والرحلات متعة وثقافة معا .. كم من الاسر عندنا يعيشون حياتهم على هذا النمط .. بل كم من الاسر يخرج أفرادها معا ويتساوون فى الحقوق والواجبات ، ويتعاونون داخل بيتهم الواحد !

كم بيتا من بيوتنا فيه مكتبة للقراءة وفيه آلة موسيقية يعزف عليها هاو من أفراد الأسرة ؟

لقد رأيت أيام الآحاد فى البلاد الاوربية أياما مقدسة فيها الصلاة فى الكنائس وفيها الصلاة فى محراب الطبيعة .. مهرجانات ورحلات بالزوارق فى البحيرات وقطارات تغدو وتروح بهواة الصعود الى قمم الجبال .. والمطاعم ليس فيها مكان خال لان الكل يريد تغييرا شاملا .. يريد أن يقضى يوم الاحد كاملا فى الخارج ينتقل من متعة الى متعة .

كيف نقضى نحن يوم الجمعة ؟

اننا لاينقصنا الصناعات بأنواعها من خفيفة وثقيلة بل ينقصنا وفى المقام الاول أن نعرف كيف نعيش .

واذا لم يكن فى استطاعتنا أن نطيل أعمارنا أكثر مما قدر لها ففى مقدورنا أن نجعلها أغنى ، وأعمق ، وأجمل ، وأهنأ ، وابقى أى نعيشها بالعرض ... أن نملأ كل دقيقة من حياتنا بالبهجة ،

الضحك من القلب بهجة ، وادخال السرور على الناس بهجة ، والعطاء ماديا وفنيا بهجة ، والخلق بهجة ، وتذوق الجمال والفن بهجة ، ومنح الحب بهجة ، واقالة العثرة بهجة ، والقراءة بهجة ، والرحلة

فى الارض بهجة وكذلك الرحلة فى النفس والرحلة فى الزمن ، والرحلة فى الماضى .

الانتصار للحق بهجة ، واقرار العدل بهجة ولو انها غالية الثمن ...

كم من مباهج تزخر بها الحياة ولا يراها بعض الناس .

ولكن هذه المباهج غذاء للروح فماذا عن الجسم؟ ما هو أسلوبنا فى الطعام ؟

لقد قلت أن المطبخ المصرى آفة من آفات الشخصية المصرية فماذا نأكل وكيف نأكل ؟

وليس المقصود بالاكل ملء البطون بالطعام والشراب فذلك لا فن فيه ولا خير منه .. ولكنى أقصد بالاكل نوعيته لاحجمه ... الكيف لا الكم .

ان المقصود بالطعام أن يكون غذاء أى يحتوى على عدد معين من السعرات الحرارية ويحتوى على نسب معينة من النشويات والسكريات والدهنيات بحيث تمد الجسم بالطاقة المطلوبة له . فهل يخطر ببالنا هذا كله ونحن نعد طعامنا ثم نتناوله ؟ أم اننا ننشد أولا حسن المذاق ؟ ولذة الطعام ؟ هل نأكل مثلا فى مواعيد ثابتة لا تتداخل ولا تختلط ؟ هل نتبع نظاما معينا ؟ هل نلقن صغارنا آداب المائدة وأسلوب المؤاكلة وكيفية استعمال الأدوات المختلفة؟

لقد جنى علينا فى سائر البلاد العربية تقريبا المطبخ التركى بدسمه ولذائذه التى تحمل فى ثناياها كثيرا من أمراض المعدة والكبد ونحن نعلم جيدا قول النبى صلى الله عليه وسلم (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء) وقال فيما يتصل بقواعد الطعام (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا اكلنا لانشبع) وهى قاعدة

صحيحة لا تخيب .. ومن العجيب ان علماء التغـــذية لم يزيدوا عليها شيئا بعد بحوث طويلة حصيلتها فى النهاية عدم انزال طعام على طعام وعدم الامتلاء ..

ان أمراضنا كلها لو حللتها ترجع الى : افراط التغذية أو ضعف التغذية أو سوء التغذية وما يتصل بهذا كله من عـــادات سيئة تتفشى فينا .

لقد رأيت فى سويسرا عددا كبيرا من المسنين الذين يتجـــاوزون السبعين وهم منتصبو القامة ، منتظمو المشية ، نشيطو الحركة.. لا يزالون متفتحين للحياة ولهم فيها مشاركة ايجابية . بل اننا فى احدى الرحلات الليلية على البحيرة اخترنا نحن أن نأخذ مكاننـــا داخل الباخرة حين كان رجال ونساء فى سن آبائنـــا بل أجـــدادنا يجلسون على السطح فى الهواء الطلق كمـــا يقـــولون ... ومن الطريف أن هذا الهواء الطلق كنا نسميه نحن بردا قارســـا .

ان هذه الصحة سرها كله فى نظام طعامهم الصحى الذى يعتمد على الخضروات الطازجة والفواكه والمسلوق ...

ترى هل نأخذ عبرة ؟ مع أننا نعيش فى جو حار ، وأرضـــنا تجود فيها الخضر والفاكهة على مدار السنة ؟

* * *

هذا عن أنفسنا . ونعود الى السؤال مرة أخرى متصلا بأولادنا . كيف نعيش فى أطفالنا ؟ أى ماذا نعطى لأطفالنـــا ؟

هناك يعطون للطفل الكتاب المصور ، والصور الملونة ، واللعبه الموجهة التى يجد متعته كلها فى فكها واعادة تركيبها ... يعطونه الطعام الصحى لا الدسم ... يعطونه الحنان الرشيد لا الضـــار الذى يفسد شخصيته ويجعلها اتكالية وشديدة الحساسية من فرط ما ألف من التدليل والاستجابة العمياء التى هيهات أن يعثر عليهـــا فى الحياة العامة عندما يصبح رجلا أو امرأة ..

هناك يعطون الطفل البرامج الجميلة والافلام الخاصة ويعطونه العلم مدروسا ومشوقا .. هنـــاك القـــواميس الملونة الخاصـــة بالاطفال ودوائر المعارف الخلاصة بالاطفال ودوائر المعارف للزهور والنباتات .. كل شيء هناك مدروس من أجل الطفولة ...

أمامي منهج المحفوظات الانجليزية الموضوعة لاطفـــال الســـنة الثالثة بالمرحلة الابتدائية ... وجدت فيها مثلا هذه القطعـــة عن (عبور الطريق) وترجمتها :

قف وانظر واسمع
قبل أن تعبر الطريق
استعمل عينيك وأذنيك
ثم استعمل قدمك .
انظر يسارا ويمينا
عندما يكون الضوء أحمر قف
عندما يكون الضوء أصفر استعد
عندما يكون الضوء أخضر سر آمنا
وقطعة أخرى تقول تحت عنوان : (بذرة البرتقال)
لا ترم أبدا بذرة البرتقالة
على الأرض أرجوك
ان قطعة منها تحت كعب
قد تكسر قدما

بدون تعقيد .

هكذا يعلمونهم الحياة والسلوك بدون خطابية ... وفي سهولة وفي كتاب آخر خاص باللغة رأيت فيـــه كيف يعلمون الكلمـــات الانجليزية بالشعر الخفيف مثل : ضع حرف كذا مع كذا فيصبح عندك قطا .

وضع حرف كذا مع كذا فيصبح عندك كرة .

ومع هذه المسميات صورها ملونة وفى أوضـــاع مضـــحكة تسر الطفل وتسليه .

هكذا يعلمون لغتهم حين نبدأ نحن تعليم لغتنا لاطفالنا بالنحــو ونلقنهم فى جدية صارمة ان الكلمة تنقسم الى اسم وفعل وحرف فاذا وصلنا الى (الجملة) فلا نجد فى لغتنا التى نطنطن بغنـــاها ووفرة مفرداتها الا هذه الجملة التى لا تتغير كأنها تحفة :

(ضرب زيد عمرا) !!

وهى سيئة لفظا ومدلولا وأثرا فى نفوس طفلة سهلة الالتقـــاط والانطباع .

ثم نلوم أولادنا ، كبارا ، على تصرفاتهم ثم على نفـــورهم من دروس اللغة العربية !!

لخص الاستاذ سامح الخالدى عيوب التعليم فى مؤتمر الدراسات العربية سنة ١٩٥١ فاذا بهذه العيوب لا تزال ملموسة اليوم أى بعد ربع قرن تقريبا . ومما قاله عن مدارسنا فى البلاد العربية بعامة أن (التدريس فيها ميكانيكى يعتمد على ذاكرة الطالب فى الدرجة الاولى . والاعتماد على الحفظ هذا من ميراث عصـــور الانحطاط خاصة . كما أن الفرد فيها مهمل ، فشخصية الطلاب مضـــغوط عليها ، ولهذا تؤلف وحدات مكبوتة ، وقد شل فيها ابتكار الطالب وتفكيره الحر الطليق وخياله . والروح الرياضية الحقة معدومـــة فيها ، فالالعاب تلعب للغلبة ، وما زال الفرد فيها هو المهم ، وما زال الجمهور يصفق للفرد اللاعب فيها لا للمجموع . كما أن التربية الدينية الحقة المثلة فى المثل العليا لا وجود لها . فالدين بمفهومه الحقيقى لا يؤثر تأثيرا فعالا فى حياة الطلاب من الناحية

الخلقية . والتدريس الدينى سطحى ، والروح الدينية التى تدعو الى مكارم الاخلاق ، والى انصاف الناس والتنزه عن الصغائر مفقودة . وكتب الدين سقيمة لا تفى بالمراد ، ولا تنمى هذه الانظمة الشعور الوطنى ، اى شعور التمسك بالوطن والاستعداد للتضحية من أجله ... الخ) .

وأضيف أن من عيوبنا التركيز على الكلمة وحدها واهمال الصورة ... والصورة المقصودة الـ Image بعد ربع قرن تقريبا أى الصورة المحسوبة ثقافيا .

يجب أن نتجه الى التعليم الموضوعى للطفل بالصورة ... بلغة المنظر . فنعرض له بالصورة الطبيعية الملونة ، **الحيوان** (كموضوع) فى جميع العصور والمناطق : فالحيوان هو (الحياة) والله يسمى الدار الآخرة (الحيوان) اشارة الى الحياة الاخرى .

يجب أن ننفض عن أطفالنا تراب العادة والمفاهيم الثابتة .

موضوع **العمارة** فى جميع العصور والمناطق (معبد ، كنيسة ، مسجد ، ملعب ، متحف ، مدرسة ... الخ) .

والعمارة رمز المدنية والمدينة لانها تساوى الاستقرار .

العمارة مسرحية متعددة الشخوص والارواح .

موضوع **الآلة** اى **العلم والصناعة** فى الفن والحياة مثل ظهور السينما — الكاميرا — التليفزيون — الآلة .

التعليم الموضوعى للطفل نقسمه الى ثلاثة أقسام :

١ — **ما قبل الحضارة** — ويمثله عالم الحيوان .
٢ — **اكتشاف الحضارة** — وتمثله العمارة .
٣ — **الحضارة فى خطر** — وتمثله الآلة .

يكفى أن يعرف الطفل بعد عرض الكثير ،أن هذا جزء من الممكن ليصير عنده احساس بالندم عله يخرج منه تولستوى آخر أو غزالى آخر . أن الفن أسلوب فى رؤية الوجود وليس (فورم) .

أما المعلم فيجب أن يكون موجها فالمعلم الملقن يحجب العمل الفنى كما أشرت . وخير وسيلة للتعليم كما يقول تولستوى هى : العمل .

هناك يلجأ ون الى طريقة الحفز فى التكليف بالواجبات كأن يقول المدرس لتلاميذه : كل منكم يعمل فى المساء ساعة فى الحساب فى باب كذا .. ولا يحدد عدد المسائل ، فالذى يحدث عادة أن كل طالب يحل عددا من المسائل اكثر كثيرا مما يملأ ساعة ، اظهارا لقدراته وتسابقا مع زملائه ، وارضاء للمدرس .. يفعل هذا الطالب وهو راض ، بل مزهو ، لانه يشعر أنه يعمل بمحض اختياره وهو فى الحقيقة مدفوع دفعا غير منظور ..

السنا بحاجة فى سائر المجالات الى أسلوب الحوافز بدلا من أسلوب الامر والنهى الذى نهواه جميعا ، ونمارسه بمجرد أن تسنح فرصة ، وليته يجدى فان الذى يقرأ مذكرات النابهين منا ، أو من غيرنا يروعه أن الاوامر والنواهى التى وقفت فى طريق هواياتهم ، سواء فى الاسرة أو فى المدرسة أو حتى فى الحياة العامة، لم تثنهم عن عزمهم بل زادتهم اصرارا ، وأشعلت رغبتهم . فتوفيق الحكيم أراد أبوه أن يكون قانونيا ، لا أديبا فنانا . وتوفيق الحكيم بدوره أراد لابنه اسماعيل أن يكون مهندسا ، فاذا به اليوم عازف جيتار وقائد فرقة موسيقية . والموسيقار القصبجى أراد له أبوه أن يكون عالما فى الازهر لا موسيقيا .. والدكتور طه حسين أراد له أبوه أن يكون عالما فى الازهر ، فاذا به يثور على نظم التعليم فيه فى ذلك الوقت ، ويتجه الى الجامعة المصرية ويتعلق بها طالبا فأستاذا فعميدا ..

لقد وصل هؤلاء حقا الى بغيتهم ، ولكن بعد تبديد طاقات كثيرة فى المقاومة ، ومحاولة الملاءمة والمواءمة بينهم وبين مجتمعاتهم الصغيرة والكبيرة ، لو وفرت هذه الطاقات لتسير فى طريقها الاثير عندها ، لبكر عطاؤها وتضاعف .

ولكن تغيير اسلوبنا لا يأتى عفوا ، بل يجب أن يبدأ من البداية أى من البيت والمدرسة ، فان مفاهيمنا فى التربية ، ومفاهيمنا فى التعليم ، آفة من آفات الشخصية المصرية .

ان الطفل هو الانسان الجديد الذى لم يزيفه الكبار . والنظرية التى تقول ان كل انسان يحتوى كيانه فضلا من أى نوع ، نظرية صحيحة تربويا وديمقراطيا .. فلماذا نصر على القاء التعليمات ونسرف فيها ؟ لماذا حين تستبد بنا شهوة تغيير شىء فى الطفل ، لا نسأل أنفسنا كما يقول « يونج » عما اذا كنا نحن فى حاجة الى التغيير لا هو ؟

ان الانسان صغيرا أو كبيرا فى حاجة الى « السيادة » .. أن يكون سيد نفسه أى قادرا على العطاء محققا لذاته ... حتى القرآن والانجيل يجب حين نقرؤهما أن نسمعهما من «الداخل» ،فى عملية تجديد الفكر الدينى كا يقول « اقبال » ، فان توكيد الروح الذى سعت اليه المسيحية يتحقق لا باستبعاد القوى الخارجية التى تخترقها أنوار الروح بالفعل ، وانما يتحقق بتنظيم علاقة الإنسان بهذه القوى الخارجية ، على هدى النور المنبعث من العالم الموجود فى أعماق نفسه .. بمثل هذا الاسلوب تربى المدرسة ، شخصية الطفل حين تبث فيه وعيا خلاقا للقيمة والا أخرجت منه فردا مكررا ضائعا فى الزحام .. وفرق بين الفردية والشخصية .

الشخصية تولد طفلة ثم تنمو ، غذاؤها العلم والتجربة والحياة .. وهى قابلة للنمو الى غير حد ...

أما أسلوب التلقين المتبع فى مدارسنا فانه يصنع قوالب، لا شخصيات . واذا كان ناقل الكفر ليس بكافر ، فان ناقل العلم ليس بعالم .. وانما العالم هو الخلاق المبتكر .

الشخصية هى الذات الساعية الى تحقيق ذاتها بالخلق . الشخصية تكامل لامكانات البشر أى . غريزة + فكر + روح أى بشرية محققة .

يقول الدكتور أحمد زكي فى مؤتمر الدراسات العربية الذى عقد ببيروت سنة ١٩٥١ والذى طبع فى كتاب العرب والحضارة الحديثة .

(ان التعليم عندى مفتاح كل مغلق من مغالق الحياة ، فى شرقنا هذا العربى . ولو أنى خيرت بين أشياء كثيرة يعطاها العرب ، ما اخترت المال ، ولا اخترت الاستقلال ، ولكن اختار التعليم يشمل ويعم ، فهو الوسيلة الى المال ، وهو الوسيلة الى الاستقلال ، وهو الوسيلة الى فتح كل باب مغلق يتدفق منه الخير كثيرا وفيرا ..) .

* * *

ولكن أى تعليم ؟

هل تعلم المدرسة المصرية والعربية ، الطفل حب الطبيعة باعتبارها **الام الكبرى** التى تتطلب منا نحن معشر الابناء أن نبحث وندرس ونتأمل ونتحرك ساعين فى الارض ، متحدين للعوائق فى اعتماد على النفس ؟

الطبيعة أم ومعلم ومرب ...

أم لا تفطم وليدها ، لانه لا وجود له خارج رحابها ، فالشاعر

العربى حين صور الشمول ، لم يجد الا مظهرا من مظاهرها فقال لمدوحه القادر عليه :

فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت أن المنتأى عنك واسع

ليت المدرسة تعلم الطفل أن الطبيعة كتاب الله الصامت ، كما أن القرآن كتاب الله المقروء .

والقراءة فى الحالين أو الكتابين ، تتطلب النور المادى لرؤية الحروف . وتتطلب اكثر النور المعنوى لرؤية ما وراء الحروف .. لرؤية المعانى الحقيقية . والنور المعنوى هو الرغبة والشوق والحماسة ... انها كالزواج قبول وايجاب ... كثيرون يقرأون ولا يستفيدون كأولئك الذين يتزوجون ولا يسعدون ... نحن نزور القبول فى القراءة ، وفى الحياة بشكليات .. تصفح النص من الخارج دون الغوص فيه والامتزاج به ، كسؤال العروس بينما يجب أن تقبل أولا ... أن تختار ... ترضى ثم يأتى عقد القران .... وكم من نساء يتزوجن ويلدن ويعشن فى الحرام على الرغم من عقود الزواج ...وكذلك الكتاب الذى يقرؤه عجلان ، مع أن القراءة الحقيقية تأمل وتودد وصبر يكون كالرافعة الوجدانية تنقل القارىء من حالة عادية الى مرتقى عال .

هل تعلم المدرسة البنت كيف تلبس وكيف تجلس وكيف تتحدث وكيف تتزين وكيف تتصرف ومتى تتكلم ومتى تصمت ؟ هل تعلمها ان الجمال الغالى (تركيبه) صعبة من هذه السمات جميعا ؟

هل تعلمها أن الحب ليس الفارس والحصان الابيض ... الخ تهويمات القصص والاساطير التى يكتبها أصحابها لتزجية الوقت ، أو تسلية الفراغ عند الحالمين والحالمات ؟ وأن الف ليلة وليلة قد يكون فيها الكثير من حياة عصرها ولكن عصرنا لا ،

هل تعلم المدرسة ، البنت ، أن مجنون ليلى أو قيس ولبنى ، أو جميل بثينة أو كثير عزة ، أو العباس بن الاحنف و « فوز » أو ولادة وابن زيدون قصص شعرية ، شاعرة وانها مع هذا صحيحة ، وفيها لمسات انسانية الا أن عصرنا له طبيعة اخرى ؟

هل تعلم المدرسة البنت أن عصرها قطع أشواطا بعيدة بعد (آلام فرتر) و (رفائيل) و (حياة لا مرتين) و (رورميو وجوليت) و (كليوبطرة) ؟

فى سائر اللغات قصص لا تحصى عن الحب .. ومع هذا فالحب لا يصلح للاقتباس كفنون الادب ، أو التقليد كالازياء .

وليست اللغات وحدها فالتاريخ زاخر بقصص الحب ... لم ينج منه أحد حتى رجال الاديان .. من عف منهم كقس سلامة ، ومن أسف ، كراسبوتين ...

ومع هذا فالحب ، الحقيقى ، فى سائر الوانه نعمة وعطاء وحنان ... والذى يحنو يمنح ولا يسلب ، ويسمو ولا يقسو ، ويلين ولا يجفو ، ويتسمح ولا يشتط .

هل تعلم المدرسة او تسلم بالجنس تطرحه فى موضوعية علمية مصقولة ، بدلا من أن يدور الهمس بين رفاق العمر وتتخافت الاصوات ، ويعلو الضحك المكتوم ، وتتقارب الرءوس ، ويطل الفضول كله من العيون ، وتدمى الشفاة من العض عليها من الخجل المصطنع أو الحقيقى ؟ مما يلقى فى الروع أن الجنس على اطلاقه عيب وفاضح وفادح ؟

ان العيب هو امتهان الجنس والاباحية .

هل تعلم المدرسة البنت والولد على السواء كيف يختار شريك الحياة ؟ على اساس من التقاء الشعور والفكر معا ؟ فانه لا يطفىء

القلب مثل تفاوت المستوى الفكرى بين زوجين يكون احدهمـــا فى واد ، والآخر فى واد آخر ... انها الوحـــدة القـــاتلة وان رآهما الناس ، وسقف البيت ، اثنين .

لا يكفى أن يعيش الانسان بل لا بد أن يحيا .

وعندما يتحول الزواج مع الشيخوخة الى الفة قوية ، وصداقة عميقة تكون مواهب الروح خير بديل عن متعة الجسم التى يكون الزمن قد فرغ من التهامها .. ولكن الزمن نفســـه لا يستطيـــع ممارسة هوايته المفتونة بحفـــر التجاعيـــد ، مع الروح الخضراء المتجددة النضرة .

ولكن ليس معنى هذا عبادة العقل وحده فهو أحيانا عنـــد بعض الناس يتسيد على حساب جهود العاطفة أو نضوبها ... وهـــذا الطراز لا تسعد صحبته .. ان رحلة العمر تحتـــاج الى القلب والعقل معا .. الى الجسم والروح معا ... وافتقـــاد عنصر من هـــذه العنـــاصر يســـلم الى الشقاء الذى يستعصى على العبادات النفسية .

لابد من هزة عنيفة للمدرسة المصرية ففيهابعد البيت ، يعـــاد اليوم بناء الشخصية المصرية .

أى يعاد كتابة التاريخ .

وبعد : بعد كل السلبيات التى ذكرت بعضا ولايزال فى النفس حاجات ..

ماذا أقول ؟

ليس عندنا قصد فى القول ، أو تحديد للعبارة . مما يفسد علينا ذكاء الهدف وغايته الكبرى ... والا فهل يعقل أن ننزل (بالعبور) الذى وقفت وراءه وراثات أمة وصبرها وتقـــديرها وتحضـــيرها

وقدرتها القديمة فى الادارة ، ثم عذابها بالهزيمة والقهر ولهفتهاعلى الارض والنصر ... هل يعقل أن ننزل (بالعبور) الذى يمثل ويتمثل هذا كله الى ما نسمعه فى وسائل الاعلام من التشدق بالعبور بمناسبة وبغير مناسبة ؟ وما دريت أن البغبغة تقلل من الحدث التاريخى التحولى ، وتهبط به الى مادة دعائية أو اعلان ميلامين.
ليس عندنا حلم ثقافى ... أو حلم فنى على الرغم من وجود الجامعات وتعددها .. حتى التراث ، حفظه فى مفهومنا ، معناه تجميعه وتشوينه مع أن الحفاظ عليه يعنى تفهمه وذكره واستلهامه .. ان حياة العلم مذاكرته .. يروى الغزالى أن أحد الصحابة قال يوم مات عمر : اليوم مات ٩ر. العلم . ولم يكتب عمر كتابا ، ولم يكن استاذا فى جامعة ، ولكن العلم قر فى قلبه ، جوهره .. حين كانت عنده الرؤية الاسلامية الحقيقية .

وبعض التراث ، التقاليد . والتقاليد ليست التقليد ولا هى منه .. وليست الجمود كما يفهمها العامة .. والعامة هنا هم فقراء الفكر ولكن التقاليد عند الخاصة ، وهم هنا أثرياء الفكر لا المال ... وثبات الاجيال وعطاؤها .. انها منطلق لكل جيل متطور نام .

اننا اليوم نتكلم كثيرا عن السياحة ونعنى بالطبع السياحة الخارجية بشقيها أو بشطريها أى زيارة الغرباء لنا وزيارتنا للبلاد الاجنبية .. ولكننا نحتاج الى سياحة أخرى قد لا تدر مالا ولكنها تضيف الينا ثراء لا يقدر بمال **أعنى السياحة فى تراثنا فانها مولد جديد لنا ...**

يقول الدكتور فؤاد زكريا من مقال «الى متى نغترب عن حاضرنا» الاهرام ٧٣/١١/٢٨ (فى رأيى أن ماضى الامة لايمكن أن يكون له تأثير حقيقى فى حاضرها الا اذا كان الخط بينهما متصلا . فقيمة اى اتجاه فكرى ينتمى الى الماضى ، من حيث قدرته على تشكيل الحاضر ، انما تظهر أوضح ماتكون حين يصبح ذلك الاتجاه جزءاً

من تاريخ متصل ومن حركة تطور مستمرة تتجاوز نفسها وتصحح أخطاءها خلال مسارها الطويل ، دون أن تتوقف خلال ذلك أو تنقطع ... والتراث الحقيقى فى اعتقادى ، هو ذلك الذى يندمج فى التاريخ التالى ويصبح جزءا منه بحيث يظل الماضى حيا فى الحاضر حتى بعد أن يكون الحاضر قد تخطاه وتجاوزه بمراحل ..)

كتب الدكتور حسين مؤنس قصة رمزية سماها (ادارة عموم الزير) ويبدو أن عندنا ادارات عموم الزير ، ووزارات عموم الزير وكأنها انشئت لتخلق وظائف لموظفين أو تكون مسرحا أو مفرخا تفرخ فيه القوى العاملة ، الخريجين ، كل عام من باب تغطية البطالة أو البطالة المقنعة ... ولنأخذ مثلا وزارة السياحة لو ان هذه الوزارة تحررت من الروتين وفهمت السياحة على انها فن وعلم وصناعة لعرفت كيف تستفيد من كنوز هذا البلد أو على الاقل لتعلمت من بلاد لا تملك من فيوض الطبيعة ومسار التاريخ وآثار الاديان الثلاثة ، ما نملك واصبحت السياحة فيها مورد مورد رزق ومصدر غنى ...

* * *

عندما كتبت عن المازنى كتابا ، صورت البيئة المصرية فى طفولة المازنى حين كان الشعب يئن من قهر الاجنبى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ...

وحين أكتب عن العشرين الاولى من النصف الثانى للقرن العشرين اجدنى فى الموقف نفسه أى ما كتبته هناك ينطبق هنا :

قلت فى كتابى « أدب المازنى » .

(ولما كان نظام الحكم فى مصر فرديا فى كل عصورها قبل أن تضع لها دستورا ، ومثل هذا الوضع لاتستقر فيه الحالة الاقتصادية لانها لاتخضع للتداول الطبيعى وانما تخضع للرغبة التحكمية المحضة ... فاذا كان الحاكم حازما جادا ضرب على أيدى العابثين واستقر الامر له .. واذا كان ذا نظر عملى بعيد

يدرك شيئا من حال البلاد المحكومة من الناحية الاقتصـــادية عاد ذلك بالخير على الحياة .. فالحكومة قوامها شـــخصية الحـــاكم اذا صلح استقامت الحياة **واذا استبد كان وبالا على المحكومين ..** وهذا يفسر شعور المصريين بان مفاجآت الدهر لا حد لها ، ولاعجب فهم مهددون ليس عندهم من الضـــمان ما يجعلهم يمضـــون فى عملهم ليجنوا الثمره أو يجنيها بنوهم . ومثل هـــذه الحالة تؤدى الى شىء من النهم فى الحياة الاقتصـــادية والخلقيـــة .. وتغرى بالكسب بأى وسيلة مشروعة كانت أم غير مشروعة ما دامت المسألة فلايا فلا توازن بين الفرص وانما الغرض هو الوصول من أقصر الطرق . والنتيجة الحتمية لذلك هى ايجاد فروق غير مهذبة .. ايجاد نظام الطبقات .. ايجاد **طبقة غالبة وطبقة مغلوبة** .والأثر الطبيعى لهذا كله أن تنقطع الصلة بين طبقات المجتمـــع وتتلوث الحالة النفسية للشعب فلا ثقة نفسية تقرب بعضه الى بعض أو تشيع فيه التعاطف النفسى فيتـــدافع الى شىء من تواد أو تراحم يخفف من جدة غرائز التملك والاقتناء والسيطرة السائدة فيه .

وهذا الوضع المـــادى أثر للوضع السياسى .. وكلاهما أثر فى الوضع الادبى .. ومثل هذه الحياة التى تلقى ظلالا من الشـــك فى العدالة ، تلقى فى الروع أن الارض ليست مجـــالا لحق يســـود لان الثقة فى كل نظام ذاهبة ، وتوهم ان الحياة الدنيا شقاءومحنة والفرار منها أمنية ، والنقص فيها محتوم ..ولهذا الشك واليأس أثره **العقلى والعملى والنفسى والوجدانى .**

أما الاثر العقلى فيبدو فى ذلك الطابع الغيبى فى التفكير والذى يتمثل فى مثل قولهم عقب كل شىء ... هكذا أراد الله .

أما **الاثر العملى** فيبدو فى الخفاء والاحتيال الـــذى كان يســـود الحياة فى مصر ، فالمهارة فى التخفى كانت الطريق الى النجـــاح فى الحياة العملية . والرغبة فى التخفى لها انعكاسات فى الاثاث المصرى

والابنية المصرية الى عهد ليس ببعيد ففى الارائك والاصونة سراديب متداخلة ، وفى البيوت القديمة لاترى شرفات ظاهرة بل «مشربيات حاجبة» فالحياة المصرية كلها كانت قائمة على التخفى بل ان طاقية الاخفاء التى يتردد ذكرها فى أقاصيصنا هى انعكاس لهذه الرغبة فى التخفى .

والقرية المصرية تتجمع بيوتها وتتساند حتى ليسهل الوثب من سطح بيت الى آخر ، بينما القرية الغربية متناثرة ، وتجمع بيوت القرية المصرية حتى لتبدو قطعة واحدة انما هو انعكاس للخوف حتى اذا استنجد أحدهم لبى الجميع ...

أما الاثر النفسى فيبدو فى النفوس التى لوثها الشك واليأس والحيرة ... يبدو فى النفوس التى سلبت الطمأنينة والراحة ففقدت بذلك كل شىء وأصبحت حياتها جحيمًا لايطاق .

أما الاثر الوجدانى فيبدو فى الادب الذى أسف فكذب حين مدح الظالم وهو ينقم عليه .

هذه الحياة العقلية والنفسية والوجدانية حدت الى اضطهاد الفلاسفة والعلماء لمحض التفكير مع أن الفلسفة الاسلامية قوامها التوفيق بين الدين والعلم ولكن الناس ليس فى نفوسهم ما يوحى الثقة بهذا ... هم لايؤمنون بأن الحياة تجرى وفق نواميس ثابتة بل كل شىء عندهم قابل للتغيير ، والكون على حد تعبيرهم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء والفن قائم على هذا وفيه منه أصداء فما نراه من شكوى الزمان ومدح الحاكم المذنب فى الادب الكاذب ، والاغانى المهرجة ، وترديد الشعب لمثل هذه الامثلة (تبقى نار تصبح رماد) و (ان حلى زادك كله كله) فالادب العامى الذى هو أدب الشعب وظل نفسه ينم عن حيرة وقلق نفسى ينتهى الى التفويض والتسليم بقضاء الله وماكان الله ليقضى بهذا .
وأغلبنا لا يفهم المعنى الدينى فهما قريبا ... فان قرأت عليهم :

(ليس للانسان الا ما سعى) فهموها الى جانب غيرها من آيات التوكل فتغلب عليها .. والمحافظون من أهل الاديان يميلون الى انكار السببية فالآية الكريمة (ألم تر أن الله أنزل من السماء ما فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) « سورة فاطر » الباء فى رأيهم للالصاق لا للسببية ... وهم يفسرون كل شىء يجرى تحت عيونهم بوحى هذه الغيبية التى يعتنقونها ...

حتى شكوى الزمان كانت صورة لفهمهم الخاطىء للحياة فهم يتوهمون أنه لا يدوم سرور أو حزن ... ولهذا ظل وأثر عالق فينا الى اليوم...يضحك المسرور منا ثم يقول: اللهم اجعله خيراً كأنه يتوقع الشر ما دام سر حينا ، وكأن الشر فى أعقاب الخير ! لماذا ؟ ومن سوء فهمهم حملهم معنى (ان شاء الله) على التواكل ... ان هذه المشيئة ان هى الا تأكيد للعزم فأنا سوف أفعل كذا ثم هناك صمام أمن لما يطرأ مما لاقدرة لنا عليه ... ولكن قائلنا يقولها حين ينوى ألا يفعل متهربا ... وفى مشيئة الله عن الكذب منتدح ...

حين دهمنا الاستعمار أوهمنا مصريين وشرقيين اننا لاشىء ولا نستحق شيئا فتعددت ظواهر الاتهام فينا ... فان رأوا ناجحا لا يعدون نجاحه عملا أو ذا أسباب معقولة بل هو عندهم طفرة ووثبة وأعجوبة وأثر محاباة ومحسوبية أو حظ ، ونسينا أن الحظ توفيق من الله ... واذا رأوا فاشلا لا يردون فشله الى سبب ...

والى هذا الطابع يرجع أكثر عيوبنا فى الحياة والتصرف ... فنحن لا نثق فى الديمقراطية لان الديمقراطية أساسها ثقة الفرد بنفسه وبكيانه وبحقه،وقد عجزنا أو عجز الكثيرون منا عن فهم هذه المعانى . فتطلعوا الى الآخرة تهربا من الدنيا ... ولما كان الزهد أقرب طريق الى الاستعلاء فقد تعددت أسبابه وكثرت مظاهره من مخرقة وحرمان وعجز . وكان لهذه الغيبية أصداء فظهرت

مذاهب وفرق وطرق للصوفية وأشاير ... وزاد الاقبـــال على الاضرحة وتسرب الخطأ فى المفاهيم الى مفهومنا للولاية والاولياء.. مع أن الولى قيمة معنوية تجسد كل ما فى عالم الانســان الاعلى من نبل وسمو وتضحية وفداء ...

***

لقد وصفت بهذه السطور ، الفترة من أواخر القرن التاســع عشر وأوائل القرن العشرين فهل اختلف واقع الحال عن هذا ؟ قاس أن يضيع من عمر أمة سنين .

والآن :

لا وقت للتحسر
اعيدوا تشكيل الحاضر
واختصارا للوقت والجهد
انفتحوا على العالم المتحضر
خذوا خير ما عند الناس بدون عقد
بلا استخذاء فقد أعطينا الغرب ، يوما .
وبلا استعلاء فنحن بشر قد نخطىء حين يصيب غيرنا .
نتفحص أنفسنا
ونواجه الحقيقة
نعيد كتابة التاريخ ؟

من جديد ..

هذا الكتاب كتبته بعد أن عشته .. بعضه كان ألما وبعضه كان املا ، وبعض كان معنى يلوح فى الخاطر ثم يعز على التحقيق .

ولكنى **بالوراثة والدراسة** لم أيأس فتاريخنا ملىء بالمحن التى ارتفعنا عليها ، والأشواك التى تحديناها ، والدموع التى جففناها ثم تصالحنا مع الفرح ، وسامحنا الجرح وصافحنا النعمة كما تصفو السماء غب المطر .

الدين .. والفن .. والحضارة .. والعصرية .. والتراث ، والمدرسة واسلوب التعليم .. كلها موضوعات عشتها وشربتها من الدراسة والتأمل والتفكير . وعرفت من الحياة والكتاب والبيت والجامعة واقعنا فيها بتجاربه واخطائه ومسئولياته ورؤاه .

وانصهر فى نفسى هذا كله فغمست قلمى فيه بالصدق كله ، وبمصريتى كلها اسجل الأسباب والعلل وأرسم المثل والأمل وأتمثل اليوم والغد لنا ولأبنائنا .. أما الماضى فقد حمل جيلنا أوزاره وآثاره لأنه لم يقو على التيار فجرفه التيار .

لقد سميت الكتاب (أعيدوا كتابة التاريخ) وقلبت الصفحات كلها ، وعرضت نماذج من الأخطاء الكبيرة التى يفدح ثمنها الشعوب .. وقد يتورط فى هذا الثمن الفادح أكثر من جيل . يغرمون ليغنم الآخرون فى الخارج أو الداخل .

وصبر الشعوب طويل ولكن حسابها عندما يحين ، عسير . ولم يعرف الصبر بعد الزمن الطويل ، شعبا كاظما عافيا وان يكن غير معاف ، كشعبنا . . . ولكن الحليم اذا غضب ، **يتغير التاريخ** فى محاولة جديدة للكتابة ترشد عليها الأحكام وأصحابها ، ويستقيم ميزان العدل استجابة **لأمنية قديمة** نادى بها فى مصر ، يوما ، الفلاح الفصيح . . .

ولكن يبقى بعد هذا أكثر من خط وضعت تحته خطا فى هذا الكتاب للتمييز والتفكير : **ولكن المعالجة الكاملة سأفرد لها كتابا قائما بذاته** أتحدث فيه عن :

(الانفتاح الذى لم يذكره أحد) أين ومتى ولماذا ؟ والذى لم ننفتح عليه ولم نذكره ، كبير خطير لو انتبهنا اليه وأخذنا به **سيتغير التاريخ على هذه الأرض** ، بل ، ربما ، فى العالم .

ما زالت هناك فى تاريخنا القريب والبعيد علامات استفهام حائرة لو قدر لها **الاسراء والاثراء لغدت علامات طريق . . .**

حين أختم هذا الكتاب ، أعاهد الله والنيل **أن أبدأ كتابا** يليه على طريق الشخصية المصرية وما يمكن أن تحققه لو انفسح الطريق وانفتح الأمل والعمل أمام قدراتها وحرياتها ووسائلها :

انه موضوعى الكبير وهمى الشاغل الى أعطيه أيامى حتى يعود الانسان المصرى عزيزا كما بدأ . . نبدأ به التاريخ ؟

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

فى هـذا الكتاب

صفحة

دار الشروق

مطابع مدكور وأولاده

رقم الايداع بدار الكتب ٣٥٧٦/١٩٧٤

هذا الكتاب

دعوة كبيرة رائدة الى اعادة كتابة التاريخ فى عملية تنقية ، وتعــرية ، وتصحيح من الزيف والتضليــل والتحريف . وبهذا اضاف الكتاب الى المكتبة العربية ، القضايا التى غابت عنها من تهيب الكاتبين أو تحرجهم ، أو ضبابية الرؤية ، أو خوف المصير .

يقدم هذا الكتاب برؤية جديدة وأسلوب جديد معمق ومكتنز ، على الغوص فى تاريخ مصر : ماذا فيه من اخطاء وخطايا ؟ ومن هم الجناة الذين أرادوا أمة التاريخ بلا تاريخ .. ؟ .. كيف يصنع الديكتاتور ؟

فى عملية تشريح للماضى والحاضر ، صادقة وأمينة وموضوعية ...

ناقش الكتاب : المفاهيم الثابتة فى التاريخ بأبعادها التاريخية محدداً نصيبها من الصدق أو الوهم .

تناول الكتاب فى روح علمية انسانية ـ مفهوم مصر للدين والفن ..

كما واجه الكتاب فى دراسة نزيهة :

الأقباط والمسلمين

التحرر من الخوف وابداع الحضارة

الدولة العصرية

كيف نعيش .. ماذا تعلم مدارسنا ؟

هذه بعض القضايا التى أثارها الكتاب فى انطلاقة رائدة وجراة متحررة من الخوف والعقد والتقليدية ، والنفــاق

طبع الغلاف بمطابع الاهرام التجارية